ألبير كامي

الغريب

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان


الغريب

ألبير كامو

الغريب

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الجزء الأول

الفصل الأول

ماتت أمي اليوم . وربما أمس ، لا أدري ! لقد تلقيت من الملجأ الذي كانت تقيم فيه برقية هذا نصها : « أمكم توفيت . الدفن غدا . أخلص تعازينا » . ولم أستطع أن أفهم من ذلك شيئا .. ربما تكون قد توفيت أمس !

ان ملجأ العجزة في بلدة مارنجو التي تبعد نحو ثمانين كيلو مترا عن مدينة الجزائر .. سأستقل الاوتوبيس في الساعة الثانية وسأصل الى هناك بعد الظهر ، وهكذا أستطيع أن أسهر الليل بجانب أمي وأدفنها مساء الغد . لقد طلبت اجازة يومين من رئيسي ، ولم يستطع أن يجد عذرا لرفض طلبي ، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه راض .. حتى انني قلت له : « ليس هذا ذنبي » . ولكنه لم يجب . وفكرت حينئذ في انه لم يكن ينبغي أن أقول له ذلك . وعلى أي حال فلم يكن ثمة ما يستوجب اعتذاري ، وكان الاحرى به أن يقدم لي العزاء . ولكنه سيفعل ذلك من غير شك بعد غد حينما يراني في ملابس الحداد . أما الآن فانه يبدو لي كأن أمي لم تمت . لكن بعد الدفن ستكون المسألة قد وضحت وضوحا تاما وستتخذ مظهرا رسميا .

ركبت الاوتوبيس في الساعة الثانية ، وكان الجو حارا شديد القيظ. وكنت قد تناولت الطعام عند « سيلست » كما هي العادة . وكان جميع من في المطعم متألمين لمصابي ، وقد قال لي سيلست : « ان الانسان ليست له سوى أم واحدة ». وحينما غادرت المطعم رافقوني حتى الباب. وكنت مذهولا بعض الشيء لانه كان ينبغي أن أذهب الى عمانويل لاستعير منه رباط عنق أسود ، وشارة للحداد أضعها فوق ذراعي . ولكنه كان قد فقد عمه منذ بضعة شهور .

وقد جريت لكي لا يفوتني الاوتوبيس . وهذه العجلة ، والجهد الذي بذلته في الجري : الى جانب اهتزاز السيارة ، ورائحة البنزين ، وانعكاس ضوء الشمس على الطريق وفي السماء ، كل هذا جعلني أغفو. لقد نمت معظم وقت الرحلة ، ولما استيقظت وجدت جسمي كالكرة واني أجلس بجانب جندي فابتسم لي وسألني : هل رحلتك بعيدة ؟ وقلت له : « نعم » حتى لا أطيل الحديث !

كان الملجأ يبعد عن القرية نحو كيلو مترين ، وقد قطعت هذه المسافة سيرا على قدمي . وكنت أريد أن أرى أمي على الفور ، ولكن البواب قال لي أنه يجب أن أقابل المدير أولا . وكان المدير مشغولا ولذلك انتظرت قليلا . وفي خلال هذا الوقت كان البواب يتحدث باستمرار ، وأخيرا رأيت المدير ، وقد استقبلني في مكتبه . انه يكاد أن يكون كهلا ، وكان يحمل وسام عصبة الشرف « اللجيون دونور » . وقد نظر اليّ بعينيه الصافيتين ، ثم صافحني ، واحتفظ بيدي في يده فترة طويلة حتى انني لم أعرف كيف أسحبها . وفتح سجلا وقال لي : « لقد دخلت مدام

ميرسول الملجأ منذ ثلاثة أعوام ، وكنت أنت عائلها الوحيد » • وظننت أنه يؤنبني ، وحاولت أن أوضح له الامر ، ولكنه قاطعني قائلا : « أنت غير مرغم على أن تلتمس الاعذار لتبرير موقفك يا ولدي العزيز • لقد قرأت سجل أمك ، وأدركت أنك لم تكن تستطيع اعالتها وتوفير ما كانت في حاجة اليه • لقد كانت في حاجة الى ممرضة ولكن مرتبك زهيد ، ومهما يكن من أمر فانها كانت أسعد حالا هنا » •

وقلت : « نعم يا سيدي المدير » • وحينئذ أضاف قائلا : « أنت تعلم أنه كان لها أصدقاء من سنها هنا ، وكانت تستطيع أن تشاطرهم اهتمامات زمن مضى • انك شاب ، ولا بد أنهـا كانت ستشعر بالملل والضيق اذا كانت قد عاشت معك » •

وهذا حق • فان أمي حينما كانت تعيش معي في المنزل ، كانت تقطع وقتها في متابعتي بعينيها في صمت • وفي الايام الاولى لاقامتها في الملجأ كانت تبكي كثيرا • ولكن هذا كان بسبب عدم التعود • وبعد بضعة شهور كان لا بد أن تبكي اذا خرجت من الملجأ ••• دائما بسبب التعود• وربما كان هذا هو السبب في أني لم أذهب لزيارتها في خلال العام الاخير ولو مرة • وهناك سبب آخر ، هو أن هذا كان سيضيع مني يوم الاحد ، بالاضافة الى الجهد الذي أبذله في السفر بالاوتوبيس ، وشراء تذكرتين، وساعتين تضيعان في الطريق •

وتكلم معي المدير مرة أخرى ، ولكني لم أصغ اليه تقريبا • ثم قال لي : « أعتقد انك تريد رؤية أمك » ونهضت من غير أن أقول شيئا • وسبقني الى الباب • وعلى الـدرج قال لي موضحا : « لقد نقلناها الى

المبنى الصغير المخصص للموتى (المورج) الملحق بالملجأ ، وذلك لعدم اثارة مشاعر النزلاء الآخرين . فعندما يتوفى نزيل يصبح زملاؤه عصبيين لمدة يومين أو ثلاثة ، وهذا يجعل الخدمة هنا صعبة » .

واجتزنا فناء فيه كثير من العجزة يثرثرون ، وقد انقسموا الى جماعات . وصمتوا حينما مررنا بهم ، ثم استأنفوا الحديث بعد أن تجاوزناهم ، وكان لحديثهم رنة صوت الببغاوات وهي تثرثر . وعند باب مبنى صغير تركني المدير بعد أن قال لي : « اني أتركك الآن يا مسيو ميرسول وأنا رهن تصرفك في مكتبي . وقد تقرر ، من حيث المبدأ ، أن يتم الدفن في الساعة العاشرة من صباح الغد . وقد فكرنا انك ربما أحببت أن تسهر الليلة بجوار الفقيدة . كلمة أخيرة : يبدو أن أمك قد أسرت كثيرا لزملائها وزميلاتها برغبتها في أن تدفن طبقا للطقوس الدينية. وقد تكفلت بأن أفعل ما يجب في هذا الشأن ولكنني أردت فقط أن أخطرك بذلك » . وشكرته . ان أمي ملحدة ، ولكنها لم تفكر مطلقا في الدين مدة حياتها .

ودخلت الى مبنى حفظ الجثث. ووجدت نفسي في قاعة يغمرها النور، مطلية بالجير ، ولها جدران من زجاج . ولم يكن بها من أثاث سوى بعض المقاعد ، كما كان بها بعض المساند الخشبية على شكل (×) ، وكان منهما اثنان في وسط القاعة عليهما تابوت وغطاؤه ، وكانت المسامير القلاووظ التي دقت في أخشاب التابوت لامعة . وبجانب التابوت رأيت ممرضة عربية في ثوب أبيض ، وعلى رأسها ايشارب زاهي اللون .

وفي هذه اللحظة دخل البواب ووجدته وراء ظهري ، لا بد أنه قد

جرى لكي يلحقني • وقال لي وهو يتلعثم : « لقد غطيناها ، ولكن يجب أن أفك المسامير لكي تراها » • وتقـدم نحو التابوت ولكني منعتـه • فسألني : « ألا تريد أن تراها ؟ » • فقلت : « لا » ، وتوقف ، وشعرت بالضيق لاني أحسست بأنه لم يكن ينبغي أن أقول ذلك • وبعد لحظة نظر اليّ وسألني : « لماذا ؟ » ، قالها من غير عتاب كأنه يريد أن يستوضحني• فقلت : « لا أدري » • وحينئذ قال وهو يبرم شاربه الابيض من غير أن ينظر اليّ : « فهمت » • كانت له عينـان جميلتـان زرقاوان صافيتان ، وبشرته حمراء قليلا • وأعطاني مقعـدا وجلس هو على مقعـد خلفي • ونهضت الممرضة واتجهت الى البـاب • وحينئذ قال لي البواب : « انها تشكو من قرحة » • ولما لم أفهم ما يريد أن يقول نظـرت الى الممرضة فرأيت تحت عينيها رباطا أبيض يدور حول رأسها ويكاد يغطي أنفها •

ولما خرجت قال لي البواب : « سأتركك وحدك »• ولا أذكر الحركة التي فعلتها ، ولكنه ظل واقفا خلفي • وكان وجوده وراء ظهري يضايقني كانت القاعة يغمرها ضوء بعد الظهر الجميل • وكان اثنان من «الدبابير» يطنان في الهواء قرب الجدار الزجاجي • وشعرت بالنوم يستحوذ عليّ ، فقلت للبواب من غير أن ألتفت اليه : « هل أنت هنا منذ مدة طويلة ؟ » فأجاب على الفـور : « منذ خمس سنوات » • لكأنه كان ينتظـر هذا السؤال منذ زمن طويل !

ثم أخذ يثرثر كثيرا • ولا بد انه كان سيدهش لو أني قلت له أنه سيختم حياته كبواب لملجأ مارنجو • كان يبلـغ من العمر أربعة وستين عاما ، وقال لي انه من باريس • وفي هذه اللحظة قاطعته قائلا : « آه !

اذن أنت لست من هنا ؟ » وتذكرت حينئذ أنه قبل أن يقودني الى مكتب المدير تحدث عن أمي • فقد قال لي أنه يجب دفنها بأسرع ما يمكن ، لان الجو حار في هذه البلاد • وقد أخبرني حينئذ أنه كان يعيش من قبل في باريس وأنه يتذكرها كثيرا ولا يستطيع أن ينساهـا • وقال ان المرء في باريس يستطيع أحيانا أن يبقى مع الميت ثلاثة أيام أو أربعة ، أما هنا فهذا غير ممكن • وحينئذ قاطعته زوجته وكانت قد حضرت منذ قليل : «أسكت، هذه أشياء لا يليق أن ترويها للسيد » • واحمـر وجه الرجل العجـوز واعتذر ، وتدخلت أنا قائلا : « كلا •• كلا •• لا بأس » فقد وجدت ان ما كان يقوله صحيحا وممتعا •

ولم يلبث أن استأنف حديثه قائلا أنه اضطر أن يأتي الى الملجأ بسبب فقره • ولما كانت صحته جيدة فقد اقتـرح على ادارة الملجأ أن يعمـل بوابا • فقلت له انه يعتبر على أي حال واحدا من النزلاء • فقال معترضا : « لا » • واسترعت انتباهي تلك الطريقة التي يتحدث بها عن نزلاء الملجأ فهو يقول : « هم » أو « هؤلاء » وأحيانا يقـول « الكهول » مع أن بعضهم ليسوا اكبر منه سنا • ويبدو أن ما كان يقوله شيء طبيعي ، فهو كبواب يشعر بأنه يفضلهم وبأن له حقوقا اكثر منهم •

ودخلت الممرضة في هذه اللحظة • وحل المساء بغتة ، ولم يلبث أن بدأ ظلام الليل يزحف بسرعة عبر الجـدران الزجاجية ، وأدار البـواب المحول الكهربائي فغمـر المكان فجأة ضوء باهـر يكاد يخطف البصر • ودعاني الى حجرة الطعام لاتناول العشاء، ولكني لم اكن أشعر بأني جائع • وحينئذ عرض أن يحضر لي قدحا من قهوة ممزوجة باللبن • ولما كنت

أحب كثيرا القهوة الممزوجة باللبن فقـد وافقت ، وبعد قليل عاد ومعه صينية • وشربت القهوة ، وشعرت برغبـة في تدخين سيجـارة ، ولكني ترددت لاني لم أكن أدري اذا كنت أستطيع أن أفعـل ذلك أمام أمي • وفكرت قليلا ، ووجـدت انه ليس في الامر ما يهم • وقدمت سيجـارة للبواب وأخذنا ندخن معا •

قال لي في أثناء الحديث : « ان أصدقاء السيدة والدتك سيحضرون للسهر بجانبها أيضا ، هذا هو العرف المتبع ، وينبغي أن أذهب لاحضار مقاعد واعداد القهوة » •• وسألته : هل من الممكن اطفاء أحد المصابيح ؟ فقد كان الضوء الساطع المنعكس على الجدران البيضاء يتعبني • فقال لي ان هذا غير مستطـاع لان التركيبات الكهربائية صنعت هكذا ، فاما أن تضاء المصابيح كلها أو أن تطفأ كلها • ولم ألتفت اليه بعد ذلك كثيرا • فخرج ثم عاد وبدأ يرتب المقاعد ، ووضع فوق أحدها بعض أقداح للقهوة حول « كنكة » ، ثم جلس في مواجهتي على الجانب الآخـر من أمي • وكانت الممرضة في آخر القاعة ، وقد أدارت ظهرها لنا • ولم أستطع أن أعرف ماذا كانت تفعل ، ولكني استنتجت من حركـة ذراعيها أنها تغزل خيوط التريكو • كان الجو لطيفا ، وشعرت بالدفء بعد احتساء القهوة• وعبر الباب المفتوح دخلت رائحة الليل والازهار • وأعتقد أني غفـوت قليلا •

ولم ألبث أن استيقظت على همس خـافت • وعلى الرغـم من أني أغمضت عيني فان القاعة كانت تبدو لي ساطعة الضوء • ولم يكن أمامي أي ظل وكانت كل أركان القاعة وزواياها نظيفة وعليها رسوم جميلـة •

وفي هذه اللحظة دخل أصدقاء أمي ، وكان عددهم نحو عشرة ، وتسللوا في سكون وصمت في هذا الضوء الذي يبهر الابصار • وجلسوا من غير أن يصدر من أي مقعد أي صرير • وأخذت أتأملهم باهتمام زائد وأدقق النظر في كل تفاصيل ملامحهم وثيابهم • ومع هذا فاني لم أسمعهم يتحدثون، وخيل الي انني أكاد أن اكون في حلم، ولست فيعالم الحقيقة • وكان معظم النساء يرتدين مآزر (مرايل) ، ولم يكن يستطيع الشريط الذي كان يضغط عليها أن يمنع بطونهن من البروز • ولم أكن قد استطعت أن ألاحظ من قبل أنه يمكن أن تكون للنساء المسنات بطون بارزة • أما الرجال فكانوا في غاية الهزال وكان كل منهم يمسك بعصا • والشيء الذي أدهشني ، وأنا أتطلع الى وجوههم، أني لم أستطع أن أتبين عيونهم، وكل ما رأيته هو وميض غير لامع في وسط حفرة من التجاعيد • ولما جلسوا نظر معظمهم الي وهزوا رؤوسهم وقد بدا عليهم الكدر ، وبدت شفاههم وقد ابتلعتها أفواههم الخالية من الاسنان ، ولم أدر اذا كانوا قد حيوني أو أن عضلات وجوههم هي التي تقلصت • ولكني أرجح أنهم حيوني • وفي هذه اللحظة تبينت أنهم جميعا جلسوا في مواجهتي حول البواب وهم يهزون رؤوسهم • وخطر لي في هذه اللحظة خاطر مضحك وهو أنهم جلسوا هكذا •• لكي يحاكموني !

وبعد قليل بدأت احدى السيدات تبكي ، وكانت جالسة في الصف الثاني مختفية وراء احدى زميلاتها ، وكنت أراها بصعوبة • وكان بكاؤها يتخذ شكل صرخات ضعيفة ، ولكنها منتظمة ، وكان يبدو أنها لن تتوقف مطلقا • أما الاخريات فكان يبدو عليهن أنهن لا يلقين اليها بالا • وكانوا جميعا ، رجالا ونساء ضعفاء مكتئبين وصامتين • وكانوا يتطلعون الى

التابوت أو الى عصيهم ولم يكونوا يتطلعون الى شيء آخر . واستمرت المرأة في بكائها ، وقد أدهشني ذلك للغايـة ، لاني لم أكن أعرفهـا . وأردت ألا أصغي اليها ، ولم أجرؤ أن أطلب منها أن تكف عن البكاء . ومال البواب نحوها ، وتحدث معها ولكنها هزت رأسها وقالت شيئا ما وهي تتمتم ، واستمرت في بكائها بالانتظار نفسه . وأقبل البواب حينئذ الى ناحيتي ، وجلس قريبا مني . وبعد فترة طويلـة قال لي من غير أن يلتفت نحوي وكأنه يطلعني على نبأ يهمني : « لقد كانت وثيقة الصلة بالسيدة والدتك . وهي تقول انها كانت صديقتها الوحيدة وأنه لم يعد لها الآن في الدنيا أحد » .

وظللنا فترة طويلة على هذا الحال . وبدأ نحيب السيدة الباكية يقل شيئا فشيئا ، ولكنها كانت تزفر كثيرا . وأخيرا سكتت . ولم يعد النوم يراودني ، ولكني كنت متعبا وكنت أشعر بألم في ظهري . وران الصمت على جميع الحاضرين الذين كنت أرثي لحالهم ، وان كنت بين حين وحين أسمع صوتا غريبا لم أستطع أن أعرف كنهه . ولكنني ظننت أخيرا أن بعضهم كانوا يلقون بطون أفواههم بألسنتهم فيحدثون هذه الاصوات الغريبة ولكنهم لم يكونوا يلحظـون ذلك بسبب انهماكهم في التفكير . وخيل اليّ أيضا أن هذه الميتة الراقدة في وسطهم لا تعني شيئا في نظرهم. ولكني أعتقد الآن أن هذا الظن كان خاطئا .

وشربنا جميعا القهـوة التي قدمها لنا البـواب . وبعد ذلك لم أعد أدري شيئا . فقد مر الليل . وأتذكر أني فتحت عيني فرأيت العجـزة نائمين وقد تكدسوا فوق بعضهم البعض الا واحدا منهـم كان يستند

بذقنه على ظهر كفيه المتشبثتين بالعصا وينظر اليّ بامعان كأنما لم يكن ينتظر غير أن أستيقظ . ونمت من جديد ، ثم استيقظت بعد أن شعرت بازدياد الالم في ظهري . وبدا ضوء الصباح يتسلل عبر الجدران الزجاجية . واستيقظ أحد الكهول وأخذ يسعل سعالا شديدا . ويبصق في منديل كبير فيه خطوط، وكان كأنه ينتزع كل بصقة من جوفه انتزاعا. وقد أيقظ الباقين ، وقال البواب انه ينبغي عليهم ان يبرحوا المكان فنهضوا . وكانت هذه السهرة غير المريحة قد أحالت وجوههم الى لون كالرماد ، وفي اثناء خروجهم دهشت حينما وجدتهم يصافحونني جميعا كأنما كانت هذه الليلة ، التي تبادل فيها كلمة واحدة ، قد وثقت أواصر صداقتنا .

كنت متعبا . وقادني البواب الى غرفته حيث استطعت أن أغتسل . ثم تناولت قهوة الصباح ممزوجة باللبن، وكانت لذيذة جدا . ولما خرجت كان ضوء الصباح قد غمر الكون ، ورأيت التلال التي تفصل مارنجو عن البحر ، وكانت السماء تملؤها ألوان حمراء . والرياح التي تهب عبر التلال تحمل معها رائحة الملح . وكان يبدو أن هذه بشائر يوم لطيف . لقد مضى زمن طويل لم أطوف خلاله في الريف ، وشعرت بأن سروري سيكون عظيما اذا أنا خرجت لاتنزه، غير أن وجود أمي منعني من ذلك.

ولكنني وقفت في الفناء تحت نبات الدلب المتسلق ، وأخذت أتنفس رائحة الارض المنعشة ولم أعد أشعر بحاجة الى النوم . وفكرت في زملاء المكتب . ففي مثل هذه الساعة ينهضون للذهاب الى عملهم ، أما بالنسبة لي فكانت أصعب الساعات . وفي حين كنت أفكر في مثل هذه الاشياء سمعت رنين جرس يدق في داخل المبنى ، وهرجا ومرجا خلف

النوافذ ، ثم ساد الهدوء . وكانت الشمس قد ارتفعت اكثر من قبل في السماء وبدأت تشيع الدفء في قدمي . وعبر البواب الفناء وقال لي ان المدير يستدعيني . وذهبت الى مكتبه حيث طلب مني أن أوقع على بعض الاوراق وكان يرتدي حلة سوداء ذات سروال مخطط . وتناول التليفون بيده وقال لي : « ان موظفي حفل الجناز وصلوا الى هنا منذ قليل ، وسأطلب منهم أن يغلقوا التابوت . فهل تريد أن تلقي على أمك آخر نظرة » ؟. ولكني قلت : « لا » . وحينئذ تحدث في التليفون قائلا : « فيجاك .. قل لهم انهم يستطيعون الذهاب » .

وبعد ذلك قال لي انه سيحضر الدفن ، فشكرته. وجلس خلف مكتبه وقد وضع أحد ساقيه القصيرتين على الاخرى . وقال لي انني وهو فقط سنحضر الدفن مع الممرضة المنوط بها هذا العمل ، وأن باقي النزلاء لا ينبغي عليهم أن يشهدوا ذلك . وأضاف : انه أذن لهم فقط بالسهر بجوار الفقيدة لان « هذه مسألة انسانية » . ووافق فقط على أن يسير في موكب الجنازة صديق كهل لأمي هو : « توماس بيريز » . وهنا ابتسم المدير وقال : « أنت تعرف .. انه شعور صبياني بعض الشيء ، ولكنه هو وأمك لم يكونا يفارقان بعضهما بعضا أبداً. وكان نزلاء الملجأ يداعبونهما ويقولون لبيريز : هذه خطيبتك فكان يضحك. وكان هذا يدخل السرور على قلبيهما . ولا شك في أنه صدم كثيرا بموت السيدة ميرسول ، ولم يكن في وسعي أن أرفض طلبه ، السير في موكب الجنازة . ولكني منعته من السهر ليلة أمس كتعليمات الطبيب الزائر » .

وظللنا صامتين بعد ذلك فترة طويلة . ونهض المدير وأطل من نافذة مكتبه ثم قال : «ها هو ذا قسيس مارنجو .. لقد أقبل مبكرا » .

وأضاف قائلا : انه لا بد من السير ثلاثة أرباع الساعة على الاقل للوصول الى الكنيسة الموجودة في القرية ذاتها • ونزلنا ، ووجدنا القسيس أمام المبنى ومعه غلامان من أفراد فرقة « الكورس » لتلاوة الاناشيد الدينية وكان أحدهما يحمل مبخرة ، وقد مال الكاهن نحوه لكي يضبط طول السلسلة الفضية • ولما وصلنا اليهم انتصب القسيس ، وقال لي « يا ولدي » وتحدث معي قليلا ، ثم دخل المبنى وتبعته •

وألقيت نظرة على التابوت فوجدت أن مسامير «القلاووظ» قد أحكم دقها فيه وقد وقف الى جانبه في القاعة أربعة رجال يتشحون بالسواد • وسمعت في الوقت نفسه المدير يقول ان العربة تنتظر على الطريق ، وان القسيس بدأ يتلو صلواته • ومنذ هذه اللحظة بدأ كل شيء يجري بسرعة • فقد تقدم الرجال نحو التابوت ومعهم قطعة من الجوخ ، أما القسيس وتابعاه ، المدير ، وأنا ، فقد خرجنا • وأمام الباب كانت تقف سيدة لم أكن أعرفها ، وقدمني المدير اليها قائلا : « مسيو ميرسول » ، ولم أسمع اسم السيدة ، ولكني فهمت فقط أنها ممرضة منتدبة • وأحنت وجهها النحيل الطويل من غير أن تبتسم ثم وقفنا على هيئة صف لكي تتيح المرور للجثة • وتبعنا حاملي النعش وخرجنا من الملجأ • وأمام الباب كانت تقف عربة ، مجلوة ، طويلة ، ولامعة ، ويخيل لمن يراها أنها ذات خطوط، وبجانبها كان يقف المشرف على الجنازة ، وهو رجل نحيل يرتدي ثيابا تثير الضحك ، وبجواره رجل كهل يسئ بطريقة عجيبة • وفهمت ان هذا الاخير هو مسيو بيريز ، وكان يضع فوق رأسه قبعة مستديرة من اللباد اللين أطرافها عريضة (وقد خلعها حينما مر التابوت عند الباب) ، وكان يرتدي حلة لها بنطلون ضيق من أسفل عند الحذاء ، وبرزت من الياقة

الكبيرة لقميصه الابيض عقدة من القماش الاسود صغيرة الحجم للغاية. وكانت شفتاه ترتجفان تحت أنفه الذي تنتشر فوقه نقط سوداء . وكانت تتدلى من تحت شعره الابيض الناعم أذنان كبيرتان حمراوان لهما شكل عجيب ، وكانت مقارنتهما بوجهه الاصفر الباهت تصدم العين . وحدد لنا المشرف على الجنازة أمكنتنا في الموكب . فسار القسيس في المقدمة ، وخلفه العربة يحوطها أربعة رجال ، ثم المدير نفسه والممرضة ومسيو بيريز .

وكانت الشمس حينئذ تسطع في كبد السماء . وكانت الحرارة تزداد باستمرار . ولا أعرف لماذا توقفنا طويلا قبل أن نبدأ السير . وكنت أشعر بالحر تحت ملابسي ذات اللون القاتم . وخلع مسيو بيريز قبعته مرة أخرى ، واتجهت قليلا الى ناحيته ، وأخذت أتطلع اليه . وتحدث المدير حينئذ معي عنه ، فقال انه كان يذهب هو وأمي كل مساء للتنزه حتى مشارف القرية ، تصحبهما الممرضة . اني أفهم أمي فهما تاما ، فهي تحب مناظر الطبيعة ، فالطريق تحوطه أشجار السرو التي تؤدي الى التلال المرتفعة نحو السماء ، والارض تختلط فيها الالوان الحمراء والخضراء ، وكانت المنازل في هذه المنطقة نادرة ولكنها حسنة الشكل . ولا بد أن المساء في هذه الانحاء يبدو شاعريا يأخذ بمجامع الالباب . أما اليوم فقد كانت الشمس قاسية في حرارتها الى درجة خيل الي معها أنها جعلت السهل يختلج من تحتها ، وجعلت المناظر الطبيعية تفقد جمالها المعهود .

وبدأنا نسير . وفي هذه اللحظة فقط لمحت بيريز يعرج قليلا. وأخذت العربة تسرع في سيرها شيئا فشيئا مما جعل الكهل يترنح في مشيته .

ولم يستطع أحد الرجال الذين يسيرون بجانب العربة أن يجاريها في سرعتها ، فتخلف قليلا وأصبح الآن يسير في محاذاتي . واستبدت بي الدهشة للسرعة التي تصعد بها الشمس في السماء . وكانت أغاني الحشرات وحفيف العشب تملأ الجو بأصوات تشبه الطنين . وكان العرق يتصبب فوق خدي ، ولما لم تكن معي قبعة فقد أخذت أحرك منديلي أمام وجهي لكي أرطب بشرتي . وفي هذه اللحظة قال لي المشرف على الجنازة شيئا لم أسمعه ، وحينئذ أخذ يجفف صلعته بمنديل كان يمسك به في يده اليسرى ، أما يده اليمنى فكانت تمسك بطرف قبعة « كاسكيت » . وقلت له مستفهما : « ماذا كنت تقول ؟ » فقال وهو يشير الى السماء : « انها تضربنا فوق رؤوسنا » . فقلت له : « نعم » . وبعد قليل سألني : « هل أمك هي التي في التابوت ؟ » فقلت له مرة أخرى : « نعم » . وعاد يسألني : « هل هي عجوز ؟ » فقلت له : « تقريبا » ، وذلك لاني لم أكن أعرف سنها بالضبط . وبعد ذلك سكت .

ونظرت خلفي فوجدت بيريز على بعد نحو خمسين مترا منا . وكان يحاول المشي بسرعة لكي يلحق بنا ، وهو يهز قبعته بطرف يده . ونظرت الى المدبر أيضا فرأيته يسير في كبرياء وثقة بنفسه ، من غير أن يقوم بأية حركة لا فائدة منها . وكانت بعض قطرات العرق تلمع على جبهته ، ولكنه لم يجففها .

وبدا لي أن الموكب يسير بسرعة اكبر من ذي قبل . وكان الريف من حولي لا يزال يسطع فيه الضوء بشدة ويكاد يختنق بالشمس . وكان لمعان السماء لا يحتمل ، وبلغ من شدة حرارة الشمس أن القار (الزفت) انفجر وساح في جانب من الطريق وهو طريق يبدو أنه أصلح حديثا .

وقد انغرست أحذيتنا في هذا القار وتركت سطحه أملس لامعا • وكدت أصاب بالـدوار بين السماء الزرقـاء والبيضاء ، وبين الالوان السوداء الرتيبة التي أشاهدها أمامي : سواد القار اللزج، وسواد الثياب الكالحة، وسواد العربة اللامع • ويضاف الى هذا كله : الشمس ، ورائحة الجلد والروث المنبعثة من العربة ، ورائحة البخور ، والتعب الذي أعانيه بعد ليلة من السهاد ، كل هذا كان يرهق نظري ويشتت أفكاري •

والتفت مرة أخرى خلفي فوجدت بيريز لا يزال بعيدا جدا عنا وقد غرق في لجة الحر ، ثم لم يلبث أن اختفى عن نظري • وتبين لي بعد قليل انه ترك الطريق العام وسار في الحقول ، ورأيت الطريـق أمامي ينحني وفهمت أن بيريز الذي يعرف هذه المنطقة كثيرا أراد أن يختصر الطريق لكي يلحق بنا ، ولم تلبث أن رأيناه بيننا • وعند منحنى الطريق اختفى عن نظرنا مرة أخرى وتوغل في الحقول كما فعل في المرة السابقة وكرر ذلك عدة مرات • أما أنا فكنت أشعر بالدماء تغلي في رأسي •

ومر بعد ذلك كل شيء بسرعة وبصورة طبيعية الى حد انني لم أعد أذكر ما حدث على حقيقته • والذي أذكره فقط أنه عند مدخل القريـة تحدثت معي الممرضة • كان صوتها فريدا لا يتفق مع وجهها ، فقد كان صوتها رخيما جميلا ، مرتعشا • قالت لي : « اذا سار المرء ببطء ، فانه يتعرض لضربة الشمس • واذا سار بسرعة فانه يتصبب عرقا ، وحينما يصل الى الكنيسة يجد نفسه قد أصيب بالبرد » • وكان معها حق • ولم يكن هنالك مخرج لهذه المشكلة • كما أني لا أزال أذكر بعض صور لهذا اليوم •• وجه بيريز مثلا ، حينما لحق بنا في آخر مرة قرب القرية • فقد كانت قطرات كبيرة من الدموع تلمع على وجنتيه ، من فرط ما كان يشعر

به من أسى وألم . ولكن هذه الدمـوع لم تتساقط ، وانما احتجزتهـا التجاعيد ، وتجمعت كبقع لامعة من الماء فوق وجهه المحطم . وأذكر أيضا الكنيسة ، والقرويين الذين كانوا يقفون على الافاريز ، والازهار الحمراء لنبات « الجيرانيوم » (الخبيزة الافرنجي) على قبور المدفن ، ونوبـة الغيبوبة التي أصابت بيريز ، والتراب الاحمر الذي أهيل على تابوت أمي، والجذور البيضاء التياختلطت به ، والناس الذين احتشدوا، والاصوات، والقرية ، والانتظار أمام المقهى ، وأزيز محرك السيارة المستمر ، كما أذكر ابتهاجي حينما عاد بي الاوتوبيس الى مدينـة الجزائر حيث استقبلتني أنوارها الساطعة وقد استحوذت عليّ حينئذ فكرة واحدة :

هي أن أذهب لأنام اثنتي عشرة ساعة !!

الفصـــل الثاني

لما استيقظت ، فهمت لماذا كان يبدو على رئيسي الاستياء حينما طلبت منه منحي يومين اجازة : ذلك أن اليوم هو السبت • كنت نسيت ذلك ، ولكن هذا الخاطر طرأ على فكري حينما نهضت • فقد كان من الطبيعي أن يظن رئيسي أني سأحصل اذن على اجازة تمتد أربعة أيام ، اذا حسبنا كذلك يوم الاحد ، وهذا شيء لم يكن يسره بالطبع • ولكن الذنب لم يكن ذنبي ، ان أمي دفنت امس بدلا من اليوم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فاني كنت سأحصـــل على أي حال على يومي السبت والاحـــد كاجازة ، لانهما الاجازة الاسبوعية • ولكن هذا كله لا يمنعني على أي حال من أن أفهم موقف رئيسي •

وقد نهضت بصعوبة لأني كنت حتى ذلك الوقت متعبـــا من رحلـــة الامس • وحينما كنت أحلق ذقني فكـــرت فيما سوف أفعله بعد ذلك وقررت أن آخذ حماما • فركبت الترام وذهبت الى مبنى حمام الميناء ، وهناك ألقيت بنفسي في مياه البحر • ورأيت على مقربـــة مني في الماء « ماري كاردونا » وهي فتاة كانت تعمل معي فيما مضى في المكتب حيث كانت تكتب على الآلة الكاتبـــة ، وكنت شغوفـــا بها في ذلك الوقت ، وأعتقد أنها هي أيضا كانت معجبة بي • ولكنها تركت المكتب بعد قليل

من غير أن تتاح لنا الفرصة لتوثيق العلاقة بيننا . وفكرت في أن أصعد الى ظهر « الشمندورة » الطافية على الماء ، وبينما أنا أحاول أن أفعل ذلك اذ لمست يدي .. نهدي ماري ، وكنت لا أزال في الماء حينما رأيتها قد صعدت فوق الشمندورة واستلقت عليها ، ثم التفتت ناحيتي وقد تهدل شعرها فوق عينيها ، وراحت تضحك . وقفزت الى جوارها فوق الشمندورة . كان الجو لطيفا . وملت برأسي الى الخلف ووضعته فوق بطنها ، كما لو كنت أداعبها. ولم تقل شيئا ، فظللت محتفظا بهذا الوضع، وأخذت أتطلع الى السماء الزرقاء المزدانة بألوان ذهبية . وأحسست ببطن ماري تنبض تحت عنقي ، ومكثنا فترة طويلة من الوقت فوق الشمندورة نصف نائمين . ولما اشتدت أشعة الشمس، نهضت ماري وغاصت في الماء، فتبعتها وأمسكت بها وأحطت خصرها بيدي وأخذنا نسبح معا ، وهي تضحك دائما . ولما عدنا الى الشاطىء حيث ظللنا برهةنجفف أجسامنا قالت لي : « اني أشد سمرة منك » وحينئذ سألتها : هل تريدين أن تأتي معي الى السينما في المساء ؟ فضحكت أيضا وقالت انها تريد أن ترى فيلما لفرنديل . وبينما كنا نرتدي ملابسنا اذ بدت عليها امارات الدهشة الشديدة لما رأتني أضع رباط عنق أسود ، وسألتني هل أنت في حالة حداد ؟ فقلت لها ان أمي ماتت . وسألتني : « منذ متى ؟ » فقلت لها : « منذ أمس » . فوجمت قليلا ولكنها لم تعقب بشيء . وأحسست برغبة في أن أقول لها ان هذا لم يكن خطئي ولكني توقفت وتذكرت أني سبق أن قلت مثل ذلك لرئيسي . وقد كان هذا لا يعني شيئا . وعلى أية حال فان الانسان يكون دائما مذنبا بصورة ما .

وفي المساء كانت ماري قد نسيت كل شيء ، وكان الفيلم مؤثرا في

بعض مواقفه ثم أصبح مضحكا للغايــة • وكانت تضع ساقها ملاصقــة لساقي ، أما أنا فقد أخذت أداعبها••• ولما انتهت السهرة قبّلتها ، ولكنني كنت مضطربا فلم تكن القبله جيدة • ولما خرجنا من السينما جاءت معي الى المنزل •

وحينما استيقظت في الصباح كانت ماري قد غادرت الشقة ، وكانت قد أفهمتني من قبل انها ينبغي أن تزور خالتها • وتذكرت أن اليوم هو الاحد ، وقد ضايقني ذلك كثيرا ، فأنا لا أحب أيام الآحـــاد • وحينئذ عدت الى فراشي ، وأخذت أبحث في الوسادة عن رائحة العطر التي تركها شعر ماري فيها ، ونمت حتى الساعة العاشره • ثم أخذت أدخن وأنا في الفراش حتى الظهر • ولم أشأ أن أتناول طعام الغداء عند « سيلست » كما هي العادة لانهم هناك كانوا سيلقون عليَّ من غير شك أسئلة كثيرة، وأنا لا أحب ذلك • فسلقت بعض البيض وأكلته من غير خبز لانه لم يكن عندي شيء منه ، ولاني لم أرغب في النزول لكي أشتريه •

وبعد أن تناولت غدائي شعرت بشيء من الضيق وأخذت أجول في الشقة • لقد كانت مريحة حينما كانت أمي فيها • أما الآن فقد أصبحت كبيرة جدا بالنسبة لي ، مما اضطرني الى أن أنقـــل منضدة الطعام الى غرفة نومي • انني لم أكن أعيش الا في هذه الغرفة ، بين المقاعد المصنوعة من القش ، المقعرة قليـــلا ، والدولاب الذي اصفرت مرآته ، ومنضدة التواليت ، والسرير النحاسي • أما باقي أثاث المنزل فلم أكن في حاجــة اليه • ولما لم أجد بعد ذلك شيئا أفعلـــه تناولت صحيفة قديمة وأخذت أقرؤها • وقطعت منها اعلانا عن أملاح « كروشن » وألصقته في كراسة،

قديمة أضع فيها الاشياء الطريفة التي أعثر عليها في الصحف ، وغسلت كذلك يدي ، وأخيرا ذهبت الى الشرفة وجلست فيها .

كانت غرفتي تطل على الشارع الرئيسي في الضاحيـة . وكان الجو جميلا بعد ظهر ذلك اليوم . ومع ذلك فقد كان الشارع موحلا ، وكان المارة به قليلين ومتعجلين أيضا . ورأيت عائلات في طريقها الى النزهة . وشاهدت ولدين صغيرين يرتديان حلتين كحلل البحارة ، وكان البطلون يهبط الى أسفل الركبـة ، وكان يبـدو أنهما شبه مكبلين في ملابسهما « المحزقة » ، وبنتا صغيرة لها « فيونكة » كبيرة وردية اللون وتضع في قدميها حذاء أسود لامعا . وكانت تسير أمهم خلفهم وهي سيدة ضخمة الجسم ترتدي ثوبا من الحرير كستنائي اللون ، والاب ، وهو رجل صغير الجسم ونحيف ، وكنت أعرفه بالنظـر فقط لاني كنت قد شاهدتـه من قبل . وكان يضع على رأسه قبعـة من القش ويضع في مقدم قميصـه « بابيون » ويمسك في يديه عصا . ولما رأيته مع زوجتـه ، فهمت لماذا يقولون عنه في الحي انه رجل محترم . وبعد فترة من الوقت بدأ شبان الضاحية يقبلون بشعورهم اللامعة وكان كل منهم يضع رباط عنق أحمر اللون ويرتدي « جاكيت » محكما جدا حـول جسده وله جيب صغير مطرز ويضع في قدميه حذاء طرفه مربع الشكل . وأيقنت أنهم ذاهبون الى السينما التي في وسط البلد ، وهذا هو السبب في أنهم جاؤا مبكرين وساروا مسرعين متجهين الى الترام وهم يضحكون ويصخبون .

ثم بدأ الشارع يخلو بعد ذلك من المارة شيئا فشيئا ، وكانت دور السينما والمسارح قد بدأت حينئذ تعرض برامجها .. فيما أعتقد . ولم

يعد في الشارع سوى أصحاب الحوانيت والقطط • وعلى الافريز المقابل أخرج تاجر الدخان مقعده ووضعه أمام الباب ثم جلس عليه وقد وضع احدى ساقيه في جانب وساقه الاخرى في جانب آخر (كما لو كان يمتطي دابة) واتكأ بذراعيه على ظهر المقعد • وعربات الترام التي كانت مزدحمة بركابها منذ قليل أصبحت شبه فارغة • وفي مقهى « بييرو » الصغير الذي يقع الى جوار حانوت الدخان كان « الجرسون » يكنس نشارة الخشب من قاعتها الخالية من الزبائن • لقد كان يوم أحد بمعنى الكلمة •

وقلبت وضع مقعدي وجعلته مشابها لما فعله تاجر الدخان لاني وجدت ذلك الوضع اكثر راحة • ودخنت سيجارتين ، ثم دخلت الى الغرفة لتناول قطعة من الشيكولاتة ثم عدت لكي آكلها في النافذة • وكانت السماء صافية منذ قليل ؛ ولكنها لم تلبث ان اكفهرت وأيقنت أننا مقبلون على عاصفة من عواصف الصيف • وتراكمت السحب في السماء كنذير بسقوط المطر ، وازداد الجو اكفهرارا • وظللت فترة طويلة أرقب السماء •

وفي الساعة الخامسة أقبلت عربات الترام وهي تحدث صخبا وضجيجا ، وكانت تحمل حشود المتفرجين العائدين من الملعب الرياضي للضاحية ، وقد وقفوا على درج العربات وعلى حواجزها • ثم أعقبتها عربات أخرى تحمل اللاعبين ، وقد عرفت ذلك من الحقائب التي كانت معهم ، وكانوا يتصايحون ويغنون بصوت مرتفع لان ناديهم قد فاز • وقد أومأ لي كثير منهم • بل ان أحدهم صاح قائلا لي : « لقد تغلبنا

عليهم » • وقد رددت عليه قائلا : « نعم » وأنا أهز رأسي • ومنذ هذه اللحظة بدأت سيارات الاوتوبيس تقبل بكثرة •

كان النهار قد بدأ يولي الادبار • وفوق أسطح المنازل كانت السماء تبدو في لون أرجواني ، ولما أرخى الليل سدوله بدأ النشاط يدب في الشوارع • كان المتنزهون قد بدأوا يعودون الى دورهم • وقد استطعت أن أميز « الرجل المحترم » وهو يسير وسط أناس آخرين • وكان الاطفال يبكون أو يسحبهم ذووهم من أيديهم • ولم تلبث دور سينما الحي أن بدأت تصب في الشارع أمواجا كبيرة من روادها • وكان الشبان منهم قد شاهدوا فيلما يعرض مغامرات• أما الذين أخذوا يعودون من دور السينما التي في المدينة فقد بدأوا يصلـون بعد ذلك بقليل • وكان يبدو عليهم انهم اكثر رزانة • وكانوا يضحكون أيضا . ولكن كانت تبدو عليهم بين حين وحين امارات التعب والتفكير • لقد ظلوا في الشارع على الرصيف المقابل يمشون جيئة وذهابا • وشاهدت فتيات الحي يسرن وقد تهدلت شعورهن على اكتافهن ، وأمسكن بأذرع بعضهن البعض ، ووقف الشبان لكي يعترضوا طريقهن وأخذوا يلقون اليهن بدعابات أثارت ضحكهن وهن يتلفتن الى الوراء • وكثيرات منهن ، وكنت أعرفهن ، أومأن اليّ •

وفي تلك اللحظة أضيئت فجأة مصابيح الشوارع فبـدت النجـوم الاولى التي ظهرت في السماء شاحبة اللون ازاءها • وأحسست بكلل في عيني من فرط النظر الى الافاريز والى الناس الذين يتبدلون ، والاضواء التي تتغير • وكانت المصابيح تعكس أضواءها على بلاط الشارع المبلل وعلى عربات الترام فتجعلها تومض ومضات منتظمة ، كما كانت تعكس هذه الاضواء على الشعور اللامعة ، أو على ابتسامة ، أو سوار فضي •

ولم تلبث عربات الترام أن قل مسيرها وازداد الليل قتامة فوق الشجـــر والمصابيح ، وخلا الحي من المارة الى درجـــة أن القطط أصبحت تعبر الشارع ببطء شديد • وكانت رقبتـــي قد أوجعتني من طول ما أسندتها ظهر مقعدي • ونزلت الى الشارع لاشتري خبـــزا وفطائر ، ثم أعددت طعامـــي وأكلت وأنا واقف • وأردت أن أدخـــن سيجارة عند النافذة ، ولكن الجو كان قد اعتدل وشعرت بشيء من البرد • وأغلقت النوافذ ، وحين عودتي رأيت في المرآة طرف المنضدة وعليها موقد الكحول وبجانبه بعض قطع الخبز • وخطر في ذهني حينئذ أن هذا يوم أحد متعب ، وأن أمي قد تم دفنها ، وأني سأستأنف عملي غدا ، وان شيئا لم يتغير •

الفصل الثالث

لقد عملت اليوم كثيرا في المكتب . وكان الرئيس لطيفا . وقد سألني عما اذا كنت قد أرهقت نفسي بالعمل اكثر مما ينبغي ، كما أراد أن يعرف سن أمي . فقلت له : « نحو ستين عاما » ولا أعرف لماذا بدا عليه حينئذ كأنما سرى عنه ، وأن المسألة تعتبر منتهية .

وكانت فوق منضدتي كومة من « بوالص الشحن » تقتضي مني أن أراجعها كلها. وقبل أن أغادر المكتب للذهاب لتناول الغداء غسلت يدي. اني أحب هذه اللحظة ظهر كل يوم . أما في المساء فاني أكون أقل سرورا لان المنشفة (الفوطة) المعلقة التي تستخدم في تجفيف الايدي ، تكون اكثر تشبعا بالماء بعد أن تكون قد استعملت طوال النهار . وقد أبديت هذه الملاحظة ذات يوم لرئيسي ، وقد أجاب بأن هذا شيء يؤسف له وان كان في الوقت نفسه قليل الاهمية . وخرجت بعد قليل ، وكانت الساعة تبلغ نحو الثانية عشرة والنصف ، مع عمانويل الذي يتولى شئون الشحن بالمكتب . وكان المكتب يطل على البحر ، وأمضينا بعض الوقت نتطلع

الى سفن الشحن في الميناء الذي يكاد يحترق من حرارة الشمس • وفي هذه اللحظة وصلت سيـارة نقل وهي تحدث ضجيجا عظيما بسلاسلها وانفجاراتها • وسألني عمانويل : « هل نركب هذه السيارة ؟ » وشرعت أجري • ولكن السيارة تجاوزتنا فأسرعنا خلفهـا • وغرقت في الضجـة والغبار • ولم أعد أرى شيئا ، وكذلك لم أعد أحس الا بأننا نجري بغير انتظام في وسط الآلات الرافعة (الاوناش) والصواري التي تتراقص في الافق ، وهياكل السفن التي تحاذينا • وأمسكت أنا أولا بحافة السيارة ثم قفزت وهي مسرعة• وحينئذ ساعدت عمانويل على الصعود والجلوس• كنا نلهث ، وأخذت سيارة النقل تقفز فوق المربعات غير المتساوية التي في الميناء ، في وسط الغبار والشمس • وأخذ « عمانويل » يضحك من أعماق قلبه •

ووصلنا الى مطعم « سيلست » ونحن نتصبب عرقا • ان سيلست دائما هناك ببطنه الضخم ، ومئزره «مريلته» وشاربه الابيض • وسألني: هل كانت الاحوال تسير على ما يرام فقلت له : نعم ، وقلت له أيضا اني جائع • وأكلت بسرعة شديدة ثم تناولت قدحا من القهوة • وعدت الى منزلي ونمت قليلا لاني كنت قد احتسيت كثيرا من النبيذ ، ولما استيقظت شعرت برغبة في التدخين • كنت قد تأخرت فأسرعت لكي ألحق بالترام • وظللت أعمل طوال فترة ما بعد الظهر • كان الجو حارا جدا في المكتب ، وحينما خرجت في المساء شعرت بسرور لاني سأعود الى المنزل ، وأخذت أسير ببطء فوق رصيف الميناء • كانت السماء تبدو خضراء ، وساورني احساس بالسعادة • وعدت مباشرة الى المنزل لاني كنت أريد أن أعـد لنفسي بعض البطاطس المسلوق •

وفي أثناء صعودي فوق الدرج المظلم ، اصطدمت بجاري العجوز « سالامانو » الذي يقيم في شقة تقابل شقتي . وكان مع كلبه الاسباني الذي يرى معه منذ ثماني سنوات . وهذا الكلب به مرض في جلده كاد أن يفقده كل شعره وجعلــه مغطى بالبثور والقشور البنية اللون . وقد أصبح العجوز « سالامانو » يشبهه من طول عشرتهما ، ولانهما يعيشان معا وحيدين في غرفة واحدة صغيرة . فهو أيضا في وجهه بثور يميل لونها الى الحمرة ، وشعره الاصفر تساقط . وقد أخذ الكلب عن سيده عادة السير وهو محدودب الظهر ، وقد مد خطمه الى الامام وتوترت رقبته . ويبدو عليهما أنهما من جنس واحد، ومع ذلك فان كلا منهما يكره الآخر . والعجوز يأخذ كلبه للنزهة مرتين في كل يــوم ، في الساعة الحادية عشرة صباحا وفي السادسة مساء. وهما لم يغيرا خط سيرهما منذ ثماني سنوات، ويمكن رؤيتهما دائما في شارع « ليون » والكلب يسحب الرجل حتى ليكاد « سالامانو » العجوز أن ينكفىء عليــه ، وحينئذ يضرب الكلب ويشتمه . ويستحوذ الرعب على الكلب ويذعــن لسيده الذي يسحبــه بدوره . وحينمــا ينسى الكلب ، ويبدأ بسحب سيده من جديد يتلقى الضرب والشتائم مرة أخــرى . وحينئذ يظــلان معا على الافريز وهما يتطلعان الى بعضهما بعضا : الكلب في فزع ، والرجل في سخط وكراهية. وهذا هو حالهما دائما كل يوم . وحين يريد الكلب أن يبول، فان العجوز لا يترك له فسحة من الوقت لذلك ، انه دائما يسحبــه ، ويترك الكلب وراءه خطا من القطرات الصغيرة . فاذا بال الكلب في الغرفة فانه يتعرض للضرب من جديد . وقد استمرت حياتهما على هذا المنوال طوال ثماني سنوات . وسيلست يقول دائما : « ان سالامانو رجل منكود الحظ » ،

ولكن أحدا لا يعرف الحقيقـة • ولما قابلت سالامانو على الـدرج كان يشتم كلبه قائلا : « يا قذر ! يا نتن ! » وكان الكلب يزمجر • وقلت : « مساء الخير » ، ولكن العجوز ظل مستمرا في سبابه • وحينئذ سألته : ماذا فعل الكلب ، ولكنه لم يرد ، وقال فقط : « يا وسخ ! يا نتن ! » ورأيته يميل نحو مقود الكلب ،فكلمته بصوت أقوى من ذي قبل ، فرد عليَّ وقد ازداد حنقه : « انه دائما هنا » ثم استمر في سيره وهو يسحب الحيوان الذي ترك نفسه بين يدي سيده ، وهو يزمجر •

وفي هذه اللحظة دخل المنزل جـاري الثاني الذي يقيم في الطابـق نفسه • ويقال عنه في الحي أنه يعيش عالة على النساء • ومع ذلك فحينما يسأله أحد عن مهنته فانه يزعم أنه يعمل في محل تجاري • وعلى أية حال فهو غير محبوب قط • ولكنه يتحدث معي بين حين وحين ويزورني في شقتي لاني أصغي الى ما يقول • ذلك أني أجد قصصه مشوقـة • كما أنني لا أجد أي سبب يمنعني من التحدث معـه • وهو يدعى « ريمون سانتيز » وهو صغير الجسم ، وله منكبان عريضان وأنف ملاكم • وهو دائما أنيق حسن البزة وقد حدثني هو أيضا عن سالامانو وقال : « يا له من رجل بائس ! » وسألني عما اذا كنت لا أشمئز منه فأجبت بالنفي •

وصعدنا الدرج ، وحينما هممت بأن أتركه قال لي : « ان عنـدي سجق ونبيذ •• فهل لك أن تأكل قطعة معـي ؟••• » ورأيت أن هذا سيريحني من عناء اعداد طعامي فقبلت • وهو أيضا كان يسكن في غرفة واحدة لها مطبخ من غير نافذة • وفوق سريره كان يوجد تمثال لملاك من الجص ذي لون أبيض ووردي ، وصور لابطال رياضيين وصورتان أو ثلاث لنساء عاريات • وكانت الحجرة قذرة والفراش غير مرتب • وأشعل

أولا مصباحا بتروليا ، ثم أخرج من جيبه ضمادة غريبة الشكل ولفها حول يده اليمنى • وسألته عن ذلك فقال لي انه كان قد تشاجر مع شخص دأب على خلق المشاكل له •

وقال لي ريمون : « أنت تعرف يا مسيو ميرسول اني لست شريرا ، ولكني سريع الغضب • لقد قال لي هذا الشخص : انزل من الترام اذا كنت رجلا • فقلت له : اذهب والزم الهدوء • ولكنه قال لي اني لست رجلا • وحينئذ نزلت من الترام وقلت له كفى ومن الافضل لك أن تسكت والا فاني سأضربك ضربا موجعا •• فقال لي : بم ؟ وحينئذ وجهت اليه لكمة ، فتهاوى على الارض • وذهبت لارفعه ، ولكنه أخذ يركلني بقدمه وهو على الارض ، وحينئذ ضربته وركلته مرتين• وتخضب وجهه بالدم • وحينئذ سألته : هل صفيت الآن حسابك معي ؟ فقال لي : نعم •

وطوال هذا الوقت كان ريمون سانتيز منهمكا في لف الضمادة حول يده • وكنت جالسا على السرير • وحينئذ قال لي : « وهكذا أنت ترى أني لم أكن السبب ولكنه هو الذي كان يبحث عن المشاكل » وكان هذا صحيحا وسلمت له بذلك • ثم قال لي انه يريد أن يستشيرني في هذا الموضوع ، وأني بصفتي رجلا عرك الحياة وخبرها أستطيع أن أساعده ، ثم أردف قائلا انه سيكون صاحبا لي • ولم أقل شيئا ولكنه لم يلبث أن سألني أتريد أن تكون لي صاحبا ؟ فقلت له انه لا يوجد ثمة ما يمنع ذلك ، فبدا عليه السرور • وأخرج السجق وأنضجه على الموقد ، ثم أعد الاكواب ، والاطباق وأدوات المائدة وزجاجتي النبيذ • وقد فعل كل هذا في هدوء وسكون • وبدأنا نأكل ، وفي اثناء ذلك أخذ يروي لي قصته •

وتردد في البداية بعض الشيء .. ثم قال : « اني أعرف امرأة .. وكانت عشيقة لي » . وفهمت منه أن الرجـل الذي تشاجر معه هو أخو هذه المرأة . وقال لي انه كان ينفـق عليها ويعولها . ولم أعقب على حديثـه بشيء ، ولكنه أضاف قائلا : انه يعرف ما يشاع عنه في الحي ، ولكنه لا يبالي بذلك ، وأن له ضميرا ، وأنه يعمل في محل تجاري .

ثم قال : « لنعـد الى قصتي .. لقـد أدركت أن عشيقتي كانت تخونني . ثم قال : انه كان يعطيها ما كان يكفيها لكي تعيش ، وانه كان يدفع ايجار غرفتها ، ويعطيها عشرين فرنكا في اليوم للطعـام . وأردف قائلا : ان ايجار غرفتها ، ثلاثمائة فرنك ، يضاف الى ذلك ستمائة فرنك لطعامها ، في الشهر ، وأنه كان يقدم لها زوجين من الجـوارب بين حين وحين . وهذا كله يبلغ مجموعه ألف فرنك . وكانت «سيدتي» لا تعمل . ومع ذلك فكانت تقول لي ان النقود التي أعطيهـا لها لا تفي بمطالبها . وقد قلت لها : لماذا لا تعملين نصف يوم ؟ انك بذلك تريحينني من كثير من الاشياء الصغيرة التي تكونين في حاجة اليها . لقد اشتريت لك في هذا الشهر فستانا ومعطفا لهما لون ونوع واحـد (انساميل) ، وأدفـع لك عشرين فرنكا كل يوم ، وأدفع لك ايجار الغرفة ، في حين أنك تتناولين القهوة بعد الظهر مع صديقاتك ، وتعطيهن القهـوة ، والسكـر . وأنا أعطيك النقود . لقد بذلت جهدي لكي أرضيك ولكنك تقابلين المعروف بالشر ، وعلى الرغم من ذلك فانها لم تعمل ، وكانت تقول انها لم تعثر على عمل ، وأدركت في النهاية أنها تخونني .

ثم قال لي انه وجد تذكرة يانصيب في حقيبتها وانها لم تستطع أن تفسر له كيف اشترتها . وبعد فترة من الوقت عثر معها على ايصال يثبت

أنها رهنت سوارين ، وأنه حتى ذلك الوقت كان يجهل أن لديها هذين السوارين • وأردف يقــول : « وقد فهمت حينئذ جيــدا أنها تخونني ، فهجرتها • ولكني قبل أن أفعل ذلك ضربتها وكشفت لها عن حقيقتها • وقلت لها ان كل ما تريده هو أن تتسلى بعرضهـــا • ثم قلت لها يا مسيو ميرسول : « أنتِ لا تدركين أن الناس يحسدونكِ على السعــادة التي أحققها لكِ • وستعرفين فيما بعد اية سعادة كنتِ تتمتعين بها » •

وأوضح لي انه لذلك في حاجة الى مشورتي • وتوقف قليلا لكي يصلح فتيل المصباح الذي كان قد بدا ينفث الدخان • وكنت أصغي اليه باستمرار • وكنت قد شربت لترا من النبيذ وشعرت بسخونة شديدة في صدغي • ودخنت من سجاير ريمون لان سجائري كانت قد نفــدت • ومرت آخر عربات الترام وقد حملت معها ضوضاء الضاحية • واستمر ريمون يتكلم • فقال ان ما يضايقه هو أنه لا يزال يشتهيها • ولكنه يريد أن يعاقبها • وقد فكر في بادىء الامر أن يحضرها الى فندق ثم يستدعي بوليس الآداب لكي يسبب لها فضيحـــة ويكون لها سجل لدى بوليس الآداب • وقد سأل عنها بعض أصدقائه ممن يعيشون في بيئة « البلطجية والعاهرات » فلم يجد دليلا يتمسك به ضدها • وقد قال لهم انه يريد أن يصمها بوصمة هذه البيئة فاقترحوا عليه أن يلفــق لها « حادثة » لكي تصبح مشبوهة• ولكن هذا لم يكن هو الشيء الذي يريده• وأخذ يفكر• وقبل ذلك أراد أن يسألني عن شيء ، ولكن قبل أن يتم سؤاله أراد أن يعرف رأيي في قصته فأجبته بأني لم أصـــل الى رأي فيها ولكنها على أية حال قصة مشوقة • وسألني : هل تظن أن في الامر خيانة ؟ فقلت له انه يبدو فعلا أنها تخونه • وسألني : هل تعتقد أنه يجب معاقبتهـــا ، وماذا

تفعل لو كنت مكاني ؟ فقلت اني لا أدري حقيقة ماذا يمكن عمله، ولكني فهمت أنه يريد أن يعاقبها . واحتسيت كمية أخرى من النبيذ . وأشعل سيجارة ثم كشف لي عن فكرته . انه يريـد أن يكتب لها خطابا شديد اللهجة وفي الوقت نفسه يذكرها بأشياء لكي يجعلها تنـدم . فاذا جاءت اليه وناما في الفراش يبصق في وجهها ويطردها، ووجدت أن هذه الطريقة تحقق عقابا كافيا . ولكن ريمون قال لي انه يشعر بأنه عاجز عن كتابـة الخطاب الذي يريده ، وأنه فكـر في أن يستعين بي في كتابته . ولما لم أجب سألني عما اذا كان يضايقني أن نشرع في كتابة الخطاب على الفور فأجبت بالنفي .

وحينئذ نهض ، بعد أن شرب كوبا من النبيذ ، ورفع الاطباق وبقايا السجق البارد التي تخلفت ، وجفف بعنايـة مشمع المنضدة . ثم تناول من درج المنضدة الصغيرة المجاورة للفراش ورقـة ذات مربعات وغلاف خطاب أصفر اللون ، وقلما صغيرا من الخشب الاحمر ومحبرة مربعة بها مداد بنفسجي . ولما ذكر اسم السيـدة تبينت أنها مغربيـة . وكتبت الخطاب . وقد حررته من غير تبصر بعض الشيء ، ولكني اجتهدت في أن أرضي ريمون لانه لم يكن ثمة سبب يدعوني الى عدم ارضائه . ثم قرأت الخطاب بصوت مرتفع . وأصغى اليّ وهو يدخن ويهز رأسه ، ثم طلب مني أن أقرأه مرة أخرى . وكان مغتبطا اغتباطا تاما . وقال لي : « لقد كنت أدرك ادراكا تاما أنك تفهم الحياة » . وتبينت أنه يخاطبني في ود ، ومن غير تكلف ، ثم أردف يقول : « الآن أنت صديق حقيقي » ، وتأثرت بذلك . ثم عاد يكرر هذه العبارة ووافقته على ما يقـول . والواقع أنه لم يكن لدي مانع من أن أكون صديقا له ، وقد كان يبدو عليه بحق انه شديد الرغبة في ذلك . وأغلق غلاف الخطاب ، وقضينا على البقية الباقية

من النبيذ . ثم أخذنا ندخن بعض الوقت من غير أن نتكلم وكان السكون يسود ما حول المنزل ، وسمعنا صوت سيارة تنساب على الطريق . وقلت : « ان الوقت متأخر » . وقال ريمون انه يعتقد ذلك أيضا . وقال انه يلاحظ أن الوقت يمضي بسرعة ، وكان ما يقول صحيحا بصورة ما . واستحوذ عليَّ النعاس ، ولكني شعرت بمشقة وأنا أنهض . ولا بد أن امارات التعب كانت تبدو على ملامحي لان ريمون قال لي انه لا ينبغي أن أذهب . ولم أفهم قصده في بداية الامر . ثم قال لي انه علم بوفاة أمي ولكن هذا شيء كان لا بد من حدوثه يوما ما . وكان هذا هو رأيي أيضا .

ونهضت . وصافحني ريمون بقوة وقال لي ان الرجال يتفاهمون دائما فيما بينهم جدا . وحينما خرجت من الشقة أغلقت الباب خلفي ، وظللت لحظات في الظلام . كان المنزل يسوده الهدوء ، وكان يصعد من أعماق بئر السلم تيار رطب من الهواء . ولم أسمع الا نبض الدم وهو يطن في أذني . ووقفت ساكنا من غير حراك . ولكن في حجرة «سالامانو» العجوز كان الكلب يزمجر بصوت خافت .

الفصل الرابع

بذلت جهدا كبيرا في العمل طوال الاسبوع . وجاءني ريمون وقال انه أرسل الخطاب وذهبت الى السينما مرتين مع عمانويل الذي لا يفهم دائما ما يعرض أمامــه على الشاشة ولهذا لا بد من الشرح له . وكان أمس يوم السبت وحضرت ماري كما اتفقنــا . وكنت في غايــة الشوق لرؤيتها لانها ترتدي فستانا جميلا به خطوط حمراء وبيضاء ، وتضع في قدميها صندلا من الجلد . وكان من السهل أن أخمن أن نهديها صلبان ، وكان الشمس قد أكسبت وجهها لون الورد . وركبنا الاوتوبيس الذي حملنا عدة كيلومترات الى خارج مدينة الجزائر ووصلنا الى بلاج ضيق يقع بين الصخور وتحفه به من جهــة الارض أشجــار العناب . وشمس الساعة الرابعة لم تكن شديدة كثيرا ، ولكن الماء كان دافئا ، والامواج الصغيرة طويلة ومتكاسلة . وعلمتني ماري لعبة . فقد كانت وهي تسبح، تستقبل الامواج ثم تشرب الزبــد الذي يعلو ذروتها وتملأ به فمها ، ثم تستلقي على ظهرها لكي تنفثه بعد ذلك نحو السماء . وكان الماء المنبثق من فمها على هذه الصورة يتخذ شكل رغوة من الدانتلا لا تلبث أن تختفي في الهواء أو تعود فتتساقط كالمطر الدافيء على وجهي . ولكن بعد فترة من الوقت شعرت بفمــي يلتهب من المــاء الملح . وحينئذ أقبلت ماري

نحوي والتصقت بي ووضعت فمها على فمي . وقد أنعش لسانها شفتي ، وأخذنا نتدحرج بين الامواج بعض الوقت .

ولما ارتدينا ملابسنا على الشاطىء ، أخذت ماري تنظر اليّ بعينين تلمعان ، فعانقتها . ومنذ هذه اللحظة لم تتكلم ، وانما ضممتها نحوي رأسرعنا نبحث عن أتوبيس لكي نعود الى شقتي ونرتمي على الفراش . وقد تركت نافذتي مفتوحة ، وأحسسنا بحلاوة ليل الصيف وهو يسيل على جسدينا الاسمرين .

وفي الصباح ، ظلت ماري معي وقلت لها اننا سنتناول طعام الغداء معا . ونزلت لكي أشتري بعض اللحم . وفي أثناء صعودي سمعت صوت امرأة في حجرة ريمون . وبعد قليل أخذ سالامانو العجوز يزجر كلبه ، وسمعنا حفيف نعل ومخالب على الـدرج الخشبي للسلم ثم السباب المألوف : « يا قذر .. يا نتن » .. لقد خرجا الى الشارع . ورويت لماري قصة الرجل العجوز ، فضحكت ، وكانت ترتدي بيجامة لي رفعت اكمامها الى أعلى . ولما ضحكت اشتهيتها مرة أخرى . وبعد فترة من الوقت سألتني عما اذا كنت أحبها. فقلت لها ان هذا ليس مهما ولكن يبدو أني لا أشعر نحوها بحب . وحينئذ بدا عليها الحزن . ولكنها وهي تعد الطعام، ومن غير مناسبة ، ضحكت مرة أخرى الى حد أني عانقتها . وفي هذه اللحظة سمعنا ضوضاء شجار في شقة ريمون .

وقد ارتفع في بادىء الامر صوت حاد لامرأة ، ثم سمعت ريمون يقول : « لقد أجرمت في حقي .. لقد أجرمت في حقـي .. وسأعلمك كيف تجرمين في حقي » . وارتفع صوت ضوضاء خافتة ثم صرخت المرأة صرخة بلغت من قوتها ان امتلأت بسطة السلم فورا بالناس . وخرجت أنا وماري أيضا . وكانت المرأة تصرخ باستمرار وريمـون يضربها من غير

توقف • وقالت لي ماري ان هذا شيء بشع ، ولم أجب بشيء • وطلبت مني أن أذهب لاحضار أحد جنود الشرطة ولكني قلت لها اني لا أحبهم• ومع ذلك فقد حضر جندي مع الساكن الذي يقيم في الطابق الثاني ، وهو سباك • ودق الشرطي على الباب فلم يعد يسمع شيئا بالداخل • فأخذ يدق بصورة أعنف ، وبعد لحظة بكت المرأة ، وفتح ريمون الباب ، وفي فمه سيجارة ، وهو يتكلف الابتسام • وأسرعت المرأة نحو الباب وقالت للشرطي ان ريمون ضربها • وسأله الشرطي : ما اسمك ؟• وأجاب ريمون على سؤاله والسيجارة بين شفتيه وصاح الشرطي : « انزع السيجارة من فمك حينما تكلمني » • وتردد ريمون ، ونظر اليّ ، ثم سحب « نفسا » من سيجارته • وفي هذه اللحظة صفعه الشرطي صفعة قوية بيده السميكة الثقيلة على خده ، فطارت السيجارة بعيدا عدة أمتار • وتغير وجه ريمون ولكنه لم يقل شيئا حينئذ ، ثم سأل بصوت ذليل اذا كان يستطيع أن يلتقط « عقب سيجارته » • فسمح له الشرطي بذلك ولكنه أردف قائلا : ولكنك في المرة القادمة ستعرف أن جندي الشرطة ليس قراقوزا • وفي اثناء ذلك كانت الفتاة تبكي ، وعادت تقول : « لقد ضربني •• انه قواد » وحينئذ قال ريمون : « يا سيدي الشرطي •• ان كلمة قواد هذه تدخل تحت طائلة القانون حينما تطلق على رجل » ولكن الجندي طلب منه أن يغلق « فم الحيوان » الذي يتكلم به والتفت ريمون نحو الفتاة وقال مهددا : انتظري يا صغيرتي •• سوف نتقابل • وعاد الشرطي يطلب منه اغلاق فمه ، وقال ان الفتاة يجب أن تغادر المنزل وأن يظل هو في غرفته في انتظار استدعائه لاستجوابه في القسم • ثم قال الشرطي لريمون انه ينبغي أن يشعر بالخجل لانه سكران الى درجة أنه يرتجف بهذه الصورة • ورد ريمون قائلا : لست سكرانا •• يا سيدي الشرطي •• كل ما في الامر انني هنا •• أمامك ، وأنا أرتجف على الرغم مني • ثم أغلق الباب وانصرف جميع الناس وانتهيت أنا وماري من اعداد الطعام • ولكنها لم

تكن جائعة ، وقد آكلت أنا وحدي معظم الطعام • وانصرفت هي في الساعة الواحدة ونمت أنا قليلا •

في نحو الساعة الثالثة دق ريمون الباب ودخل • وظللت أنا راقدا في الفراش وجلس هو على طرف السرير • وظل فترة صامتا لا يتكلم ، ثم سألته عما فعل في موضوع الفتاة : فقال لي انه فعل كل ما أراد أن يفعله، وانه صفعها وبعد ذلك ضربها • أما باقي الحادث فقد شاهدته بنفسي • وقلت له انه يبدو انها لقيت بذلك ما يكفي من العقاب واني ينبغي أن يكون راضيا • وقال ان هذا هو رأيه أيضا ؛ وأضاف انه على الرغم مما فعله الشرطي فان هذا لا يغير شيئا من الضربات التي نزلت على جسدها • ثم قال انه يعرف جيدا رجال الشرطة ويعرف كيف يتصرف تجاههم • وسألني اذا كنت قد توقعت أن يرد على صفعة الشرطي ؟ فقلت له اني لم اتوقع أي شيء واني من جهة أخرى لا أحب رجال الشرطة • وبدت علامات الرضا على وجه ريمون • وسألني اذا كنت أريد أن أخرج معه ونهضت وبدأت أمشط شعري • ثم قال لي انه ينبغي أن أكون شاهدا معه • ولم يكن عندي ثمة مانع ، ولكني لم أكن أعرف ما يجب أن أقوله • وقال لي ريمون انه يكفي أن أقول ان الفتاة أخطأت في حقه • وقبلت أن اكون شاهدا في قضيته •

وخرجت أنا وريمون ، وقدم لي نوعا من المشروبات الروحية اسمه « فين » (وهو يشبه العرق) ثم أراد أن يلعب معي بلياردو ، ولعبنا ، ولكني لم اكن موفقا في اللعب • ثم أراد بعد ذلك أن نذهب الى « ماخور » ولكني لم أقبل وقلت له انني لا أحب ذلك • وحينئذ عدنا الى المنزل ونحن نسير على مهل ، وقال لي في اثناء ذلك انه مغتبط جدا لانه استطاع أن يعاقب عشيقته • ووجدت ريمون لطيفا جدا معي ، وقد أمضيت معه في الواقع وقتا طيبا •

ولمحت من بعيد ، على باب المنـزل ، سالامانو وكان يبدو عليـه الاضطراب • ولما اقتربنا منه وجدت أن كلبه ليس معه • وكان يتطلع في كل اتجاه ، ويدور حول نفسه ، ويحاول أن يخترق بنظره ظلام الدهليز وهو يتمتم بكلمات كثيرة ، ثم يعاود البحث من جديـد في الشارع وهو يحملق بعينيه الصغيرتين الحمراوين • ولما سأله ريمون عما يشغله لم يجب على الفور • وسمعته يهمس في غموض : « يا قذر •• يا نتن » ، وظل قلقا مضطربا • وسألته أين كلبه ؟ فأجاب فجأة انه مضى • ثم أردف بغتة وهو يتكلم بسرعة : « لقد اصطحبته الى ميدان ضرب النار كما هي العادة كل يوم ، وكان هناك كثير من الناس يتفرجون على السرك المتجـول • ووقفت لكي أتفرج أنا أيضا على (ملك التخلص من المآزق) ولما أردت مواصلة السير ، لم أجد الكلب • لقد كنت حقيقة أريد منذ مدة طويلة أن أعرف كيف يمكن للكلب النتن ان يذهب هكذا » •

وقال له ريمون حينئذ : ان الكلب ربما ضل طريقه ، وانه لا بد أن يعود ، وذكر له عدة أمثلة عن كلاب سارت عدة كيلومترات لكي تعـود الى صاحبها ، ومع ذلك فان العجوز كان يزداد اضطرابا • ولم يلبث أن قال : « ولكنهم سيأخذونه مني ، كما تعرفـون • وربما التقطه شخص آخر • ولكن هذا غير ممكن ، فهو ينفر من جميع الناس على الرغم من ثورته • ان رجال الشرطـة سيأخذونه بالتأكيد » • وحينئذ قلت له انه ينبغي عليه أن يتوجه الى جمعية الرفـق بالحيـوان (الشفخانة) حيث يستطيع استرداده بعد دفع بعض الرسوم • وسأل اذا كانت هذه الرسوم مرتفعة ؟ فقلت له اني لا أدري • وحينئذ صاح غاضبا : هل أدفع نقودا من أجل هذا النتن ؟•• آه !•• من الافضل له أن يموت ! ثم بدأ يكيل له السباب • وضحك ريمون ودلف الى داخل المنزل ، وتبعته ، وافترقنا حين وصلنا الى الطابق الثالث • وبعد هنيهة ، سمعت خطوات الرجـل

العجوز ثم دق على الباب . ولما فتحته ظل لحظة واقفا على عتبة الباب ثم قال : أستميحك عذرا .. أستميحك عذرا . ودعوته الى الدخول، ولكنه أبى . وأخذ ينظر الى طرف حذائــه ، ويداه اللتان تغطيهما البثــور ترتجفان . وسألني من غير أن ينظر الى وجهي : ألن يأخذوه مني ، قل الحق يا مسيو ميرسول .. هــل سيعيدونه لي .. ماذا تصبح حيــاتي بدونه ؟ فقلت له ان جمعية الرفق بالحيوانات تستبقي الكلاب مدة ثلاثة أيام تحت تصرف أصحابها ثم تفعل بها ما تشاء بعد ذلك . ونظر الي في صمت ، ثم قال : طاب مساؤك . وأغلــق الباب وراءه . وسمعته يسير جيئــة وذهابا . وسمعت سريره « يطقطق » . وأدركت من الاصــوات الغامضة التي عبرت الجــدار الذي يفصل بينه وبيني ، أنه يبكي . ولا أعرف لماذا فكرت حينئذ في أمي . وخطــر في ذهني أنه يجب أن أنهض مبكرا في الصباح . ولم أكن أشعر بأني جائع ، فنمت من غير عشاء .

الفصل الخامس

كلمني ريمون بالتليفون وأنا في المكتب ، فقال لي ان أحد أصدقائه (وكان قد حدثه عني) يدعوني الى قضاء يوم الاحـــد في « الكابينة » التي يملكها على شاطىء البحر قرب الجزائر • وأجبته بأنه يسرني قبول هذه الدعوة ، ولكني سبق أن وعدت صديقة لي بأن أمضي هذا اليـــوم معها • فقال ريمون على الفور بأنه يدعوها كذلك ، لان زوجة صديقـــه ستكون مسرورة جدا ، حينما تجد نفسها غير وحيدة في وسط مجموعة من الرجال •

وأردت أن أنهي المكالمة في الحال ، لاني أعلم أن رئيسي لا يحب أن يتحدث معنا أحد من المدينة • ولكن ريمون طلب مني أن أنتظر ، وقال لي انه قد يستطيع ابلاغي بهذه الدعوة في المساء ، ثم أردف قائلا انه يريد أن يخبرني بشيء آخر ، وهو أن جماعة من الشبان العـــرب كانوا يتتبعون خطاه طوال اليوم ، وكان من بينهم شقيق عشيقته القديمة • وطلب مني اذا رأيته قرب المنزل حينما أعود في المساء أن أبلغه بذلك • فطمأنته من هذه الناحية •

وبعد قليل استدعاني الرئيس ، فتضايقت ، لاني ظننت أنه سيطلب

مني الاقلال من الحديث في التليفون والاهتمام أكثر بالعمل. ولكن الامر كان غير ذلك تماما . فقد قال لي انه سيحدثني عن مشروع لا يزال موضوع بحث ، وأنه يريد أن يأخذ رأيي فيه . وقال انه ينـوي انشاء مكتب في باريس يقوم بالاعمال هناك مباشرة مع الشركات الكبـرى ، ويريد أن يعرف اذا كنت مستعدا للسفر الى هناك. وقال لي ان هذا سيتيح لي فرصة الاقامة في باريس والقيام برحلات في خلال جزء من السنـة . وأضاف قائلا : انك شاب ، ويبدو لي ان هذه الحياة ستروق لك . فقلت له ان كلامه صحيح ولكن هذه المسألة في الواقع لا تهمني . وحينئذ سألني عما اذا كنت غير راغب في تغيير حياتي . فقلت له ان الانسان لا يغير حياته مطلقا ، وأن جميع أنواع الحياة تتساوى على أية حال ، وان حياتي هنا ليس فيها ما يدعوني الى الاستياء منها على الاطلاق . وبدا عليه عـدم الرضا ، وقال لي أني أجيب دائما بطريقة تدل على رغبتي في التهـرب ، واني شخص غير طموح ، وان هذا شيء ضار جدا في ميدان الاعمال . وعدت بعد ذلك لكي أستأنف عملـي . وقد كنت أفضل ألا أغضبـه ، ولكني لم أجد سببا يدعوني الى تغيير حياتي . وأنا حين أفكر في أحوالي جيدا لا أجد أني تعيس أو بائس ولما كنت طالبا كان عنـدي كثير من الطموح من هذا النـوع ، ولكن لما قـدر لي أن أترك الدراسة أدركت بسرعة ان كل هذا لا ينطوي على أهمية حقيقية .

وفي المساء حضرت ماري عنـدي وسألتني عما اذا كنت أريد أن أتزوجهـا . فقلت لها إن هذا شيء لا يهـم وانا نستطيع أن نتزوج اذا شاءت . وأرادت أن تعرف ما اذا كنت أحبهـا . فقلت لها الاجابة نفسها التي سبق أن قلتها لها ذات مرة ، وان هذا شيء لا يهم وانني على أية حال لا أحبها . فقالت لي : ولماذا تتزوجني اذن ؟ فقلت لها : ان هذا شيء ليس له أية أهمية وانها اذا أرادت فاننا نستطيع أن نتزوج ومن جهة أخرى فهي التي طلبت ذلك وانني وافقت على تنفيـذ رغبتها ارضاء لها . وحينئذ

قالت : ان الزواج مسألة خطيرة • فقلت لها : اني لا أعتقد ذلك• فسكتت لحظة ونظرت اليّ في صمت • ثم عادت تتكلم وقالت : انها تريد فقط أن تعرف ما اذا كنت أوافق على هذا الطلب لو كان قد جاء من إمرأة أخرى أكون مرتبطا معها بالعلاقة نفسها • فقلت لها : بالطبع • فسألتني عما اذا كانت هي تحبني ، فقلت لها اني لا أعرف شيئا عن هذه المسألة • وبعد لحظة صمت تمتمت قائلـة اني غريب ، وانها بدون شك تحبني بسبب ذلك ، ولكن ربما يأتي يوم أنفر منها للاسباب نفسها• ولما لذت بالصمت، اذ لم يكن لدي ما أضيفه ، أخذت ذراعي وهي تبتسم وقالت لي انها تريد أن تتزوجني • فقلت لها · اننا سنفعل ذلك في أي وقت تشاء • وحدثتها حينئذ عن اقتراح رئيسي فقالت انها تود أن ترى باريس • فقلت لها اني عشت هناك فترة من الوقت • فسألتني : كيف تكون ؟ فقلت لها : انها قذرة • وفيها حمام وأفنية قذرة والناس هناك جلدهم أبيض •

وبعد ذلك سرنا وعبرنا المدينة عن طريق شوارعها الكبيرة • كانت النساء جميلات وسألت ماري اذا كانت قد لاحظت ذلك، فردت بالايجاب وقالت انها تفهمني • وظللنا فترة لا نتحدث ومع ذلك فقد كنت أريد أن تظل معي ، وقلت لها : اننا نستطيع أن نتناول العشاء معا عند سيلست • فقالت : انها تريد ذلك حقا ولكنها لا تستطيع ، لان لديها عملا • وفي هذا الوقت كنا قد اقتربنا من منزلي وقلت لها : الى اللقاء ، ونظرت اليّ وقالت : ألا تريد أن تعرف العمل الذي يضطرني الى تركك الآن ؟ وقد كنت حقيقة أريد أن أعرف ، ولكني لم أفكر في ذلك ، ولعل هذا هو السبب في أنه كان يبدو على ملامحها انها تريد أن تؤنبني • ولما أحست بأني اضطربت ضحكت مرة أخرى وتحركت بكل جسمها نحوي لكي تمد اليّ فمها •

وتناولنا العشاء عند سيلست • وبينما أنا أتناول الطعام اذ دخلت

امرأة صغيرة الجسم غريبة الشكل وسألتني عما اذا كانت تستطيع أن تجلس الى مائدتي • وقلت بالطبع انها تستطيع ذلك • كانت حركاتها سريعة ولها عينان براقتان في وجه صغير في لون التفاح • وتخلصت من جاكتتها ، وجلست ، وبدأت تفحص بلهفة قائمة الطعام • ونادت سيلست وبدأت على الفور تطلب جميع الاصناف بصوت واضح ومتعجل في الوقت نفسه وفي انتظار وصول أطباق المشهيات ، تحسب ثمن وجبة الطعام ، وأضافت اليها المنحة (البقشيش) ، وأخرجت من كيس صغير قيمة ما ستدفعه بالضبط ووضعت النقود أمامها • وفي هذه اللحظة وضع أمامها طبق المشهيات فالتهمتها بسرعة • وفي انتظار الطبق التالي ، أخرجت من حقيبتها قلما أزرق ومجلة تحوي برامج الاذاعة في خلال الاسبوع ، وأخذت تضع بكل عناية علامة أمام كل برنامج• ولما كانت المجلة تضم نحو عشر صفحات ، فقد استمرت تؤدي هذا العمل بدقة في اثناء فترة تناول الطعام كلها • ثم نهضت ، والتقطت جاكتتها بالحركات نفسها المضبوطة المحدودة كأنها تمثال متحرك ، وخرجت • ولما لم يكن لدي عمل آخر أعمله ، فقد خرجت أنا أيضا وتبعتها بعض الوقت • ورأيتها تسير على حافة افريز الشارع بسرعة وثقة عجيبتين ، ومضت في طريقها من غير أي انحراف • ولم ألبث أن فقدت أثرها ، فاختفت عن نظري ، وعدت أدراجي • وكان الانطباع الذي تركته في نفسي انها فتاة غريبة الاطوار ، ولكنني سرعان ما نسيتها •

وأمام عتبة شقتي رأيت سالامانو العجوز ، ودعوته للدخول ، وأخبرني بأن كلبه قد ضاع لانه لم يجده في جمعية الرفق بالحيوان • وقد قال له الموظفون ان سيارة ربما تكون قد داسته • وسألهم اذا كان من الممكن التيقن من ذلك في أقسام الشرطة ، فقالوا له ان من الصعب معرفة ذلك لان مثل هذه الحوادث تقع في كل يوم • وقلت للعجوز

سالامانو انه يستطيع احضار كلب آخر ، ولكنه قال انه قد تعوّد على كلبه ، وكان على حق فيما قال .

كنت جالسا القرفصاء على فراشي في حين جلس سالامانو على مقعد أمام المنضدة في مواجهتي وقد وضع يديه على ركبتيه . وكان يمضغ أواخر العبارات تحت شاربه المائل للاصفرار . وقد ضايقني قليلا ، ولكن لم يكن لدي ما أفعله ولم أكن أشعر بنعاس . ولما لم يكن لدي ما أقوله ، فقد أخذت أسأله عن كلبه ، فقال لي انه كان قد أحضره بعد وفاة زوجته. وقال انه تزوج في وقت متأخر . وفي شبابه كان يريد العمل في المسرح ، وفي خلال عمله في الجيش كان يمثل في الفرق المسرحية العسكرية ، ولكنه أخيرا عمل في ورش السكة الحديد ، وهو لا يأسف على ذلك ، لانه يتقاضى الآن معاشا صغيرا . وهو لم يكن سعيدا مع زوجته ، ولكنه على أية حال كان قد تعود عليها . ولما ماتت شعر بوحدة مؤلمة ، فطلب من أحد زملائه في المصنع أن يحضر له كلبا ، فأحضر له ذلك الكلب الذي كان عنده ، وكان حينئذ صغيرا الى درجة أنه كان يطعمه « بالبزازة » . ولكن لما كان الكلب يعيش من العمر أقل مما يعيش الانسان ، فقد انتهى الامر بأن أصبح كل منهما عجوزا . ومضى سالامانو فقال : كان الكلب سيىء الخلق ، وكنا بين حين وحين نتشاجر ونمسك بخناق بعضنا بعضا . ولكنه مع ذلك كان كلبا طيبا . وقلت له ان كلبه كان من فصيلة جيدة ، فبدا على وجه سالامانو السرور . وأردف قائلا : انك لم تعرفه قبل مرضه . لقد كان أجمل ما فيه شعره . ومنذ أصابه هذا المرض الجلدي كان سالامانو يدهن جسمه كل مساء وصباح بالمرهم . ولكن مرضه الحقيقي ، في رأي سالامانو كان تقدم السن ، والكهولة ليس لها علاج .

وفي هذه اللحظة تثاءبت وقال لي العجوز انه سيذهب . فقلت له انه يستطيع البقاء ، واني متألم لما حدث لكلبه ، فشكرني . وقال لي ان أمي

كانت تحب كلبه كثيرا • ولما تحدث عنها قال « أمك المسكينة » • وأعرب عن اعتقاده في أني لا بد أني أشعر بالتعاسة منذ توفيت أمي ، ولكني لم أعقب على كلامه ، ثم قال بسرعة ، وقد بدا عليه الكدر ، ان سكان الحي أساءوا في حكمهم عليّ ، لاني وضعت أمي في ملجأ ، ولكنه يعرفني جيداً ويعرف اني كنت أحب أمي كثيرا • فقلت له •• ولا أعرف لماذا قلت هذا: اني أجهل حتى الآن انهم يسيئون الحكم عليّ في هذا الصدد ، ولكن الملجأ كان يبدو في نظري شيئا طبيعيا ، اذ انه لم يكن معي من المال ما يكفي لكي أحتفظ بأمي • وأردفت قائلا : لقد مضت فترة طويلة من الزمن لا تجد خلالها ما تقوله لي ، وانها كانت تضيق بوحدتها • فوافقتني على رأيي ، وقال : ان الانسان يستطيع على الاقل في الملجأ أن يجد أصدقاء • ثم استأذن في الخروج ، فقد كان يريد أن ينام ، لقد تغيرت حياته الآن ولم يعد يعرف ما سوف يفعله • وفي استحياء ، ولاول مرة منذ عرفته ، مد لي يده ، وأحسست بالقشور التي في جلده • وابتسم قليلا وقال قبل أن يرحل : أؤمل ألا تنبح الكلاب في هذه الليلة ، لاني أتوهم دائما أن كلبي بينها •

الفصل السادس

اليوم هو الاحد ، وقد استيقظت بصعوبة ، وكان لا بد لماري ان تناديني وتهزني لكي أنهض ، ولم نتناول طعاما لاننا أردنا أن نذهب للاستحمام في وقت مبكر . كنت أشعر بخواء وببعض الصداع ، وكان لسيجارتي مذاق مر . وسخرت مني « ماري » قائلة : انه يبدو عليّ الحزن كما لو كنت في « جنازة » . وكانت ترتدي فستانا من التيل الابيض وقد عقصت شعرها ، وقلت لها انها جميلة ، فضحكت مسرورة .

وحين نزولنا طرقنا على باب « ريمون » ، فقال انه سيلحق بنا . ولما وصلت الى الشارع صدمني نور النهار كأنه يصفعني ، وذلك بسبب ما كنت أشعر به من تعب وكذلك لاننا لم نكن قد فتحنا مصراع النافذة. وقفزت ماري من فرط الغبطة ولم تتردد في القول بأن الجو جميل . وأحسست بأني أفضل حالا كما اني شعرت بالجوع . وقلت ذلك لماري التي عرضت عليّ حقيبتها المصنوعة من المشمع والتي كانت قد وضعت فيها لباس البحر الخاص بكل منا ، وفوطة . ولم يكن أمامنا الا أن ننتظر وسمعنا ريمون يغلق بابه . ونزل الينا وقد ارتدى بنطلونا أزرق وقميصا أبيض له كمان قصيران . ولكنه كان يضع على رأسه أيضا قبعة من القش أثارت ضحك ماري ، وكان ساعداه في غاية البياض تحت الشعيرات

السوداء التي تغطيهما ، وشعرت بشيء من الاشمئزاز لهذا المنظر • وكان يصفرّ وهو مقبل علينا وقد بدا عليه الانشراح ، وقد حيّاني قائلا : كيف حالك ، أيها العجوز ، وقال لماري وهو يحييها « يا آنسة » •

وأقول بهذه المناسبة : اني كنت قد ذهبت عشية الامس مع ريمون الى قسم الشرطة حيث شهدت بأن صديقتـــه قد « خانته » • وقد أفرج عنه على أن يعاد استجوابه مرة أخـــرى ، أما شهادتي فلم يجر بشأنهـــا تحقيق للتثبت من صحتها • وقد تكلمنا أمام البـــاب مع ريمون في هذا الموضوع ، ثم قررنا بعد ذلك أن نستقل الاوتوبيس • لم يكن «البلاج» بعيدا ، ولكننا فضلنا أن نذهب بالاوتوبيس لكي نصل بسرعة • وقال ريمون ان صديقه سيكون مسرورا اذا ذهبنـــا اليه مبكرين • ولما بدأنا نسير أومأ ريمون اليّ فجأة وطلب مني أن أنظر الى الامام ، فرأيت جماعة من الشبان العرب يستندون بظهورهم الى حانوت لبيع الدخان • وكانوا يرمقوننا في صمت وكان يبدو عليهم أنهم غير مبالين بنا أو ملتفتين الينا ، كما لو كنا أحجارا أو أشجارا ميتة • وقال ريمون ان الثاني من اليسار هو غريمه ، وبدا عليه القلق • ولكنه أردف قائلا ان المسألة تعتبر منتهية على أية حال • ولم تفهم ماري ما كنا نقوله وسألتنا عما هناك • فقلت لها ان هؤلاء الشبان العرب يريدون التشاجر مع ريمون ، فطلبت أن نرحل على الفور • واستعاد ريمون مرحه وضحك قائلا : انه يجب أن نسرع •

وذهبنا الى موقف الاوتوبيس الذي كان بعيدا بعض الشيء وألمح لي ريمون أن الشبان العرب لا يتتبعوننا • فالتفت تجاههم فوجدتهم لا يزالون في مكانهم وهم يتطلعـــون في غير مبالاة أيضا الى المكان الذي غادرناه منذ قليل • وركبنا الاوتوبيس ، وبدأ ريمون ، الذي ظهرت عليه علامات الارتياح ، يلقي بدعاباته وفكاهاته الى ماري • وشعرت بأنهـــا

وقعت في نفسه موقعا حسنا ولكنها لم ترد عليه مطلقا ، وان كانت بين حين وحين تنظر اليه وهي تضحك •

ونزلنا في أطراف مدينة الجزائر ، ولم يكن البلاج بعيدا عن موقف الاوتوبيس ولكن كان لا بد من اجتياز هضبة صغيرة تشرف على البحر وتنحدر نحو البلاج ، وكانت مغطاة بأحجار يميل لونها الى الاصفرار ، وبالنباتات البيضاء ، في حين كانت السماء لونهـا أزرق شديد الزرقة • ووجدت ماري تسلية في دفع الازهـار وتوجيـه ضربات اليها بحقيبتها المصنوعة من المشمع • وسرنا بين صفـين من الفيللات الصغـيرة ذوات الحواجز الخضراء والبيضاء ، وكان بعضها يغطيها ، مع شرفاتها ، نبات العبل ، وكان البعض الآخر مكشوفا عاريا في وسط الاحجار • وقبل أن يصل المرء الى حافة الهضبة يستطيع أن يرى البحر الساكن ثم يرى الى ما هو أبعد قليلا شريطا ضخما من الارض ممتدا داخل البحر وينام بهدوء في المياه الصافية • وصعد الجو الساكن صوت ضجيج خفيف لمحرك ، وشاهدنا على بعد زورقا بخاريا يتقدم ، وهو لا يكاد يرى ، في البحـر اللامع والتقطت ماري بعض الحصى المتعـدد الالوان كأنه قوس قزح • ومن على منحدر الهضبة المتجه الى البحر رأينا بعض المستحمين •

كان صديق ريمون يسكن في كوخ صغير « كابينة » من الخشب في طرف البلاج • وكان المنزل يستند من الخلف الى بعض الصخور ، أما الاعمدة التي كان يرتكز عليها من الامام فقد كانت غارقة في الماء• وقدمنا ريمون الى صديقه ، وكان يدعى « ماسون » ، كان رجلا طويلا ، ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، وله زوجة صغيرة ممتلئة الجسم ، ولطيفـة وتتكلم بلهجة باريسية • وطلب منا على الفور أن « نأخذ راحتنا » وقال- ان لديه سمكا مقليا كان قد اصطاده بنفسه في الصباح • وقلت له : ان منزله جميل جدا ، فقال لي انه يمضي فيه أيـام السبت والاحد وأيـام

الاجازات • وأردف قائلا : انني وزوجتي نشعر فيه بغاية السعادة • وقد كانت زوجته رقيقة حقا ، وأخذت تضحك مع ماري ، وكدت أحس لاول مرة بأنني على وشك أن أتزوج •

وكان ماسون يريد أن يستحم ، أما زوجته وريمون فلم يرغبا في الحضور معنا • وخرجنا ثلاثتنا ، وألقت ماري بنفسها في الماء على الفور وانتظرت أنا و « ماسون » بعض الوقت • وكان هو يتكلم على مهل ، ولاحظت انه اعتاد ان يختم كل عبارة يقولها بهذه الجملة : « وأقول أيضا •• » حتى ولو لم يكن لديه معنى جديد يمكن أن يضيفه الى ما يقول • فمثلا قال عن ماري انها : مدهشة ، وأقول أيضا ، رائعة • ثم لم أعد التفت الى هذه « اللازمة » لاني كنت مشغولا بالاحساس الذي خامرني بأن الشمس أنعشتني • وبدأ الرمل يسخن تحت قدمي • وأخذت أؤجل تحقيق رغبتي في النزول الى الماء ، ولكني أخيرا قلت لماسون : « هيا بنا » وغصت في الماء • أما هو فقد دخل في الماء على مهل وألقى بنفسه فيه بعد أن توغل مسافة غير قليلة • وسبح في الماء ، ولكن طريقة سباحته لم تكن جيدة الى حد اني تركته وانضممت الى ماري • وكان الماء باردا وكنت مبتهجا بالسباحة • وابتعدت أنا وماري وكنا متفقين في حركاتنا وفي غبطتنا •

وفي عرض البحر أخذنا نسبح على ظهرنا ، وبدأت الشمس تجفف من على وجهي المتجه الى السماء آخر قطرات الماء التي كانت تنساب في فمي • ورأينا ماسون يعود الى الشاطىء لكي يتمدد تحت الشمس ، وكان يبدو من بعيد ضخم الجثة • وأرادت ماري ان نسبح معا • وجلست خلفها لكي أمسكها من وسطها وأخذت تتقدم في الماء بقوة ذراعيها وأنا أساعدها بضرب الماء بقدمي • وكان ضرب الماء هكذا يحدث بعض الضوضاء وظللنا نسبح على هذا المنوال حتى أحسست بالتعب • وحينئذ

تركت ماري وعدت الى الشاطىء وأنا أسبح بانتظام وأتنفس جيدا . ولما وصلت الى الشاطىء تمددت على بطني بجانب ماسون ووضعت وجهي في الرمل وقلت له اني مستريح هكذا ، ووافقني ، وجاءت ماري ، واعتدلت لكي أنظر اليها وهي مقبلـة . كان جسدها يغمـره الماء الملح وقد ألقت بشعرها وراء رأسها ، وتمددت الى جانبي ، ملتصقة بي ، وأشاعت الحرارة المنبعثة من جسدها ومن الشمس النوم في عيني .

وهزتني ماري وقالت لي ان ماسون قد عاد أدراجـه الى المنزل ، وان الوقت قد حان لتناول الغداء . ونهضت على الفور لاني كنت جائعا ، ولكن ماري قالت لي : اني لم أقبلها منذ الصباح . وكل ما قالته صحيحا مع اني كنت أرغب في تقبيلها . وقالت لي : هيا الى الماء . وجرينا وألقينا بجسدينا بين الامواج وظللنا نسبح قليـلا ثم التصقت بي ، وشعـرت بساقيها بين ساقي .

ولما عدنا الى الكوخ وجدنا أن ماسون سبق أن نادانا . وقلت له اني جائع للغاية ، وقال لزوجته على الفور : انه مسرور مني جدا . كان الخبز جيدا ، والتهمت نصيبي من السمك . وقدم الينا بعد ذلك لحـم وبطاطس مطبوخ في الزيت . وأخذنـا نأكل من غير أن نتكلـم ، وكان ماسون يشرب نبيذا بين حين ويقدم لي منه باستمرار . وفي أثناء تنـاول القهوة شعرت بثقل في رأسي ودخنت كثيرا . واتفقنا ـــ ماسون وريمون وأنا على أن نمضي معا شهر أغسطس على البلاج ، وان نشترك في النفقات وقالت لنا ماري فجأة : أتعرفون كم الساعـة الآن ؟ انها الحادية عشرة والنصف ، ودهشنا جميعا ، ولكن ماسون قال اننا أكلنا مبكرين جدا ، وقال ان هذا شيء طبيعي ، لان وقت تناول الطعام هو الوقت الذي يجوع فيه المرء . ولا أعرف لماذا أضحك هذا القول ماري وأظن انها شربت اكثر مما ينبغي . وسألني ماسون اذا كنت أريد أن أتنزه على الشاطىء

معه ، وأردف قائلا : ان زوجتي تحب دائما أن تغفو بعد الغداء ، أما أنا فلا أحب ذلك ، وأفضل أن أتمشى . وأنا أقول لها دائما ان هذا أفضل للصحة . ولكن من حقها على أية حال ، أن تفعل ما تشاء . وقالت ماري انها ستظل في المنزل لكي تساعد مدام ماسون في غسل الاطباق . وقالت الباريسية الصغيرة (مدام ماسون) انه ينبغي لذلك أن يذهب الرجال الى الخارج . ونزلنا نحن الثلاثة ـ ماسون وريمون وأنا ـ .

كانت أشعة الشمس تسقط في اتجاه رأسي على الرمال ، وكان بريقها لا يكاد يحتمل . ولم يعد هناك أحد قط على البلاج . وداخل « الكبائن » التي تحاذي الهضبة والتي تطل على البحر كان يسمع ضجيج الاطباق وأدوات المائدة . ومن الارض المغطاة بالصخور كانت تتصاعد حرارة تجعل المرء يتنفس بصعوبة . وكان ريمون وماسون يتحدثان عن أشياء وأشخاص لا أعرفهم ، وفهمت أنهما يعرفان بعضهما بعضا منذ مدة طويلة بل انهما عاشا معا في وقت ما . واتجهنا نحو الماء وأخذنا نسير في محاذاة البحر ، وبين فينة وأخرى كانت موجة صغيرة أطول من غيرها تقفز لتبلل أحذيتنا المصنوعة من القماش . ولم أكن أفكر في شيء لاني كنت نصف نائم بسبب هذه الشمس المسلطة فوق رأسي العاري .

وفي هذه اللحظة قال ريمون لماسون شيئا لم أسمعه جيدا . ولكني لمحت في الوقت نفسه آخر البلاج ، وبعيدا جدا عنا ، اثنين من الشبان العرب قادمين في اتجاهنا . ونظرت الى ريمون الذي قال لي « انه هو » وواصلنا السير . وسأل ماسون كيف استطاعا أن يتبعانا الى هنا . وفكرت في أنهما لا بد قد رأيانا نستقل الاوتوبيس ومعنا حقيبة البلاج ، ولكني لم أقل شيئا .

وأخذ الشابان يتقدمان نحونا ببطء واقتربا منا كثيرا . ولم نغير

نحن اتجاهنا ولكن ريمون قال : « اذا حدثت مشاجرة فلتأخذ يا ماسون الثاني • وأنا سأتكفل بغريمي وأنت يا ميرسول ، اذا وصل شخص ثالث، فسيكون من نصيبك » فقلت له « وهو كذلك » ووضع ماسون يديه في جيوبه • وكان الرمل من فرط سخونتــه يبدو لي الآن أحمــر اللون • وأخذنا نتقــدم بخطى منتظمة نحــو الشابين ، والمسافــة بيننا تتناقص باستمرار • ولما أصبحنا على مسافة عدة خطوات منهما ، توقفا • وبطأنا أنا وماسون السير ، في حين اندفع ريمون مباشرة نحو غريمه • ولم أسمع جيدا ما قاله له ، ولكن الشاب تظــاهر بأنه سيضربه برأسه • ووجه له ريمون حينئذ الضربة الاولى ، ثم لم يلبث أن نادى ماسون الذي اتجه الى الشخص الذي عينه له ووجه له لكمتين بكل قوته ، فهوى الشاب في الماء ووجهه الى الارض ، وظل هكذا عدة ثوان ، وفقاقيع الهواء تتصاعد الى السطح حول رأسه • وفي خلال هذا الوقت كان ريمون يضرب أيضا ، وغطى الدم وجه غريمه • ولم يلبث ريمــون أن التفت نحــوي وقال : سترى ما سوف أفعل به ، ولكني صرخت فيه قائلا : خذ حذرك ، ان معه سكينا ! ولكنه كان قد تلقى طعنة فتحت ذراعه وأخرى جرحت فمه •

ووثب ماسون الى الامــام ، ولكن الشاب الراقــد كان قد نهض ووقف خلف زميله المسلح • ولم نجرؤ على التحرك • وأخذا يتراجعان ببطء ، من غير أن يتوقفا عن النظر الينا وارغامنا على احترام المديــة • ولما أيقنا انهما أصبحا على بعد كاف ، ركنا الى الفرار بسرعة شديدة ، في حين تسمرنا نحن تحت الشمس وقد أمسك ريمون بذراعه التي يقطر منها الدم ، ضاغطا عليها بيده •

وقال ماسون على الفور انه يوجد طبيب يمضي دائما يوم الاحد على الهضبة • وأراد ريمون أن يذهب اليه في التو واللحظة • ولكنه كلما أراد أن يتكلم أحدثت الدماء المتساقطة فقاقيع في فمه • وسندته أنا وماسون

وعدنا به الى الكابينة بأسرع ما يمكن . وهناك قال ريمون ان جروحه سطحية وانه يستطيع الذهاب للطبيب . وذهب هو وماسون ، وبقيت أنا لكي أقص على المرأتين ما حدث . وقد بكت مدام ماسون وشحب وجه ماري شحوبا شديدا . وقد أزعجني هذا وعاقني عن الشرح . وانتهى الامر بأن لزمت الصمت وأخذت أدخن وأنا أتطلع الى البحر .

وفي نحو الساعة الواحدة والنصف ، عاد ريمون مع ماسون ، وعلى ذراعه رباط وعلى ركن فمه ضمادة لاصقة . وقد قال له الطبيب : ان جراحه بسيطة ، ولكن ريمون كان شديد الاكتئاب . وحاول ماسون أن يضحكه ، ولكنه لم يتكلم . ولما طلب ان ينزل الى البلاج سألته أين يريد أن يذهب ؟ وقلنا ، ماسون وأنا ، اننا سنرافقه . وحينئذ استولى عليه الغضب وبدأ يشتمنا . وقال ماسون انه لا داعي لمعارضة رغبته في أن يخرج وحده . وعلى الرغم من هذا فقد تبعته .

وظللنا نسير على البلاج فترة طويلة . وكانت الشمس قاسية ، وكانت أشعتها الملتهبة تتكسر على الرمال وعلى البحر . وكان يساورني احساس بأن ريمون يعرف أين هو ذاهب ، ولكني كنت مخطئا . وفي نهاية البلاج وصلنا أخيرا الى نبع صغير يسيل في الرمل ، خلف صخرة كبيرة . وهناك وجدنا الشابين العربيين راقدين على الارض ، وهما يرتديان حلة العمل الزرقاء الملوثة بالشحم (العفريتة) . وكان يبدو على كليهما الهدوء بل علامات الرضا أيضا ، ولم يغير حضورنا شيئا فالشاب الذي ضرب ريمون ظل ينظر اليه من غير أن يقول شيئا ، أما الآخر فكان ينفخ في قطعة صغيرة من الغاب ويواصل الزمر من غير توقف ، وهو يرمقنا بطرف عينه .

وفي خلال كل هذا الوقت ، لم يكن هناك سوى الشمس وهذا

السكون ، والضوضاء الخافتة التي يحدثها النبع ، ونغمات المزمار ذات المقاطع الثلاث . ووضع ريمون يده في جيبه الذي يوجد به المسدس ، ولكن غريمه لم يتحرك ، وانما أخذ هو وزميله ينظران الى بعضهما ، ولاحظت ان أصابع قدمي الشاب الذي ينفخ في المزمار متباعدة جدا عن بعضهما بعضا . وسألني ريمون من غير أن تغادر عيناه خصمه : هل أقتله؟ وخشيت اذا عارضته أن أثير ثائرته فيطلق النار ، واكتفيت بأن قلت له : ان الشاب لم يتكلم معك حتى الآن ، ولهذا فانه ليس من الرجولة أن تطلق النار عليه هكذا . وظللت أسمع ضجيج المياه الخافت وصوت المزمار في وسط هذا السكون المشبع بالحرارة . وقال لي ريمون : وهو كذلك . وأردفت قائلا : ولكن اذا لم يخرج مديته ، فليس من حقك أن تطلق النار. وبدأ ريمون يثور بعض الشيء وتبدو عليه امارات الاستفزاز، في حين ظل الشاب العربي يواصل النفخ في المزمار ويراقب هو وزميله كل حركة يقوم بها ريمون . ولم ألبث ان قلت لريمون : كلا .. اذا كنت تريد أن تتشاجر فصارعه مصارعة رجل لرجل ، وأعطني مسدسك . فاذا تدخل زميله .. أ واستخدم مديته .. فسأطلق عليه النار .

ولما أعطاني ريمون مسدسه ، كانت الشمس تنزلق في كبد السماء رويدا رويدا ، ومع هذا فقد ظللنا واقفين بلا حراك ، كما لو كان قد أقيم حولنا سد يمنعنا من الحركة . وظللنا ننظر الى بعضنا بعضا من غير أن نخفض أعيننا ، وأصبح العالم الذي نعيش فيه في تلك اللحظة محصورا بين البحر والرمل والشمس ، وصوت المزمار والماء الخافت .. وراودني حينئذ احساس بأنه من الممكن اطلاق النار ، كما انه من الممكن عدم اطلاقه . فكل شيء أصبح معلقا بخيط رفيع . ولكن فجأة بدأ الشابان يتراجعان واختفيا خلف الشجرة، فانسحبت أنا وريمون، وعدنا أدراجنا. وبدا على ريمون أنه أحسن حالا وأخذ يتحدث عن الاوتوبيس الذي سنعود فيه .

ورافقته حتى الكابينة ، وبينما كان هو يصعـد الدرج الخشبي ، ظللت واقفا أسفل السلم ورأسي يطن من حرارة الشمس ، وأحجمت عن الصعود تكاسلا من بذل الجهد ، ومن مواجهة المرأتين مرة أخرى. ولكن الحرارة كانت مؤلمة الى درجة انه كان من المستحيل معها أن أظل بلا حراك تحت أشعة الشمس المتساقطة كالمطر من السماء . وفكرت : هل أظـل واقفا هكذا أو أخرج ؟ وبعد لحظة عدت نحو البلاج وبدأت أمشي .

نفس وهج الحرارة الاحمر . وكان البحر يلهث على الرمل بأمواجه الصغيرة في أنفاس سريعة .. مكتومة عندما أخـذت أسير ببطء نحـو الصخور ، وشعرت بجبهتي تتورم تحت الشمس . وخيّل اليّ ان كل هذه الحرارة تتكىء عليّ وتعترض طريقـي . وكنت كلما ازداد لفـح الحرارة قسوة أصر أسناني وأحكم اغـلاق قبضتي في جيبي بنطلوني . وشددت جسمي كله لكي أنتصر على الشمس وعلى الدوار الشديد الذي تصبه فوق رأسي . وحين تنبثق كل لمعة ضوء من الرمل كأنها السيف ، أو حينما أشاهد أصدافا بيضاء أو بقايا زجاجة مهشمة ، كانت عظام فكي تتقلص . وظللت أسير فترة طويلة على هذا الحال .

ورأيت من بعيد كتلة الصخر الصغيرة القاتمة وقد احاطت بها هالة تغشى البصر من الضوء وغبار البحر . وفكرت في النبع المنعش الذي يقع خلف الصخرة ، وشعرت بالشوق للانصات الى خرير مائه والهرب من الشمس ، ومن التعب ، ومن بكاء النساء ، والشوق أيضا الى الظل وما يبعثه في النفس من راحة . ولكني .. لما اقتربت منه ... رأيت أن غريم ريمون قد عاد ...

ولما رآني نهض قليلا ووضع يده في جيبه. أما أنا فكان من الطبيعي حينئذ أن أقبض على مسدس ريمون الموجود في جيبي . ثم زحف الى

الخلف من غير أن يسحب يده من جيبه ، وكنت بعيـدا عنه بنحو عشرة أمتار ، ولمحته يرمقني من خلال جفونه نصف المفتوحة ، ولكن خياله ظل يتراقص أغلب الوقت أمام عيني ، في هذا الجو الملتهب ، وكانت ضوضاء الامـواج قد أصبحت أكثر تكاسلا وخفوتا عنها في الظهر ، ولكن وهج الشمس والضوء على الرمل أمامي لم يتغير ، بل ظل كما هو ، لقد مضت ساعتان لم يتقدم خلالهما النهار خطوة واحدة ، كما لو كان سفينة ألقت مراسيها في وسط محيط من المعدن الملتهب ، وعند الافق مرت باخـرة صغيرة ، وقد لمحتها ، أو على الاصح لمحت بقعة سوداء ــ بطرف عيني .. لأني لم أتوقف عن النظر الى الشاب .

وفكرت في انه ليس عليّ الا أن أدور نصف دورة ثم أمضي في سبيلي وينتهي الامر ، ولكن البلاج الذي ينضح بحرارة الشمس خلفي جعلني أحجم عن العودة . فتقدمت عدة خطوات الى الامام نحو النبع .. ولم يتحرك الشاب . ولكنه على أية حال ، كان .. حتى ذلك الوقت .. بعيدا عني بعض الشيء . وربما بسبب الظلال التي على وجهه كان يبدو كما لو كان يضحك .. وانتظرت ، وانتقل لهيب الشمس الى وجنتي ، وشعرت بقطرات العرق تتجمع عند أهداب عيني ، انها الشمس نفسها التي قاسيت منها يوم وفاة أمي ، واني لأشعر الآن ، كما شعرت يومئذ ، بصداع في جبهتي وبشرايينها تدق معا تحت الجلد . وبسبب لفح الحر الذي لم أعد أطيقه تقدمت خطوة الى الامام . كنت أعرف أنها حركة حمقاء واني لن أتخلص من الشمس بالتحرك خطوة واحدة . ولكني تقدمت خطوة .. خطوة واحدة الى الامام ، وفي هذه المرة ، سحب الشاب العربي مديته من غير أن ينهض ولوح لي بها في الشمس . انفجر الضوء على الصلب الذي بدا كسلاح طويل براق ، خيل لي أنه أصابني في جبهتي . وفي هذه اللحظة نفسها تجمع العرق على أهـداب عيني وسال دفعة واحدة على جفوني وغطاها بستار دافىء كثيف . وعميت عيناي خلف هذا الستار المؤلف من

الدموع والملح ولم أعد أحس الا بدقات الشمس على جبهتي ، وفي الوقت نفسه •• بالسيف المنبثق من السكين المسلط امام وجهي • وكان هذا السيف الحارق يأكل أهدابي ويحفسر عيني الموجعتين • وأخذ كل شيء يترنح أمامي • وتفث البحر كتلة من الهواء سميكة وحارة ، وبدا كما لو كانت السماء قد فتحت بكل طولها وعرضها لكي تمطر لهباء وتوتر كياني كله ، وتقلصت يدي على المسدس • واستجاب الزناد للضغط ، ولمست اصبعي بطن المسدس المصقول ، وارتفسع صوت جاف وحاد في الوقت نفسه •• وبدأت معه المأساة وأزحت العرق والشمس • وفهمت أني دمرت توازن اليوم ، والسكون الرائع للبلاج الذي كنت سعيدا فيه • وحينئذ أطلقت أربع رصاصات أخرى على الجسد المسجى الذي خمدت أنفاسه فنفذت فيه من غير أن يبدي حراكا • وكأنما كانت هذه الرصاصات أربع دقات قصيرة طرقت بها باب التعاسة والشؤم •

الجزءُ الثّاني

الفصـل الأول

بعد القبض عليّ مباشرة ،استجوبت عدة مرات . ولكن المسألـة كانت تتعلق بأسئلة للتحقق من شخصيتي ، ولم يستمر هذا طويلا . وقد أجري الاستجواب الاول في قسم الشرطة وكان يبدو كأن قضيتي لا تهم أحدا . وبعد ثمانية أيام حدث العكس ، اذ نظـر اليّ قاضي التحقيـق بفضـول ، غير أنه سألني فقط عن اسمي ، وعنواني ، ومهنتي ، وتاريخ ولادتي . ثم أراد أن يعرف اذا كنت قد اخترت محاميا ؟ وأجبت بالنفي . وسألته عما اذا كان من الضروري اختيار محام . فقال لي : لماذا ؟ فقلت له إني أعتقد أن قضيتي بسيطة جدا . وابتسم قائلا : هذا مجرد رأي ، ولكن .. بقي رأي القانون . واذا لم تبادر أنت الى اختيار محام ، فان المحكمة ستنتدب محاميا من قبلها ، ورأيت أنه من الافضل جدا ان تتولى المحكمة الاضطلاع بمثل هذه التفاصيل. وقلت له ذلك . فوافق على رأيي وقال انه انما يطبق نص القانون .

وفي بداية الامر لم أحمل الموضوع على محمل الجد. وقد استقبلني قاضي التحقيق في حجرة تتدلى فيها الستائر ، وكان فوق مكتبه مصباح واحد يضيء المقعد الذي طلب مني الجلوس عليه ، في حين هو ذاتـه في

الظل . وكنت فيما مضى قد قرأت وصفا مماثلا لذلك ، في الكتب ، وبدا لي كل شيء كأنه مجرد لعب . ولكن بعد انتهاء محادثاتنا نظرت اليه فرأيت رجلا ذا ملامح رقيقة ، وعينين زرقاوين غائرتين ، وكان فارع الطول ، وله شارب طويل أشيب وشعر كثيف يكاد كله أن يكون أبيض، وبدا لي أنه معقول جدا ، وعطوف .. بالرغم من بعض الحركات العصبية التي كانت تبدر منه . وحين خروجي كدت أن أمد له يدي ، ولكنني تذكرت في الوقت المناسب اني قتلت رجلا .

وفي اليوم التالي ، جاء محام لزيارتي في السجن . كان شابا صغير الجسم ممتلئا ، له شعر منسق بعناية . وبالرغم من حرارة الجو (وقد كنت أنا نفسي أرتدي قميصا بنصف كم) فانه كان يرتدي حلةقاتمةاللون. وكانت ياقة قميصه منشاة ، وبتدلى منها رباط عنق غريب الشكل به خطوط عريضة سوداء وبيضاء . ووضع على سريري حقيبته التي كان يحملها تحت ذراعه ، وقدم لي نفسه ، وقال لي انه درس سجل قضيتي . وأضاف أن القضية دقيقة ، ولكنه لا يشك في النجاح اذا أوليته ثقتي . وشكرته ، وحينئذ قال لي : فلندخل الآن في الموضوع .

ثم جلس على سريري وأخبرني أنه أجريت تحريات عن حياتي الخاصة . وقد تبين منها أن أمي توفيت حديثا في أحد الملاجيء . وعلم المحققون ، من البحث الذي قاموا به في بلدة مارنجو ، أني أظهرت عدم مبالاة يوم دفنت أمي . وأردف قائلا : لعلك تدرك أنه يضايقني قليلا أن أطلب منك مساعدتي على ايضاح الامر . ولكن هذا مهم جدا . فهذا سيكون حجة قوية في يد الاتهام ... اذا لم أجد شيئا أرد به . وسألني عما اذا كنت قد تألمت في هذا اليوم . وأدهشني كثيرا هذا السؤال ، وبدا لي اني أكون في غاية الحرج لو قدر لي أن ألقيه أنا . ومع ذلك فقد أجبت قائلا : اني فقدت قليلا عادة استجواب نفسي، وانه من الصعب أن أقدم اليه ما يريد من معلومات وقلت انني كنت أحب أمي من غير

شك ، ولكن هذا لا يهم • وكل الاشخاص العاقلين يتمنون ، ان كثيرا أو قليلا ، موت هؤلاء الذين يحبونهم • وهنا قاطعني المحامي وبدا عليه اضطراب شديد • ووعدني بألا يذكر هذا في الجلسة أو للقاضي المحقق• غير أني أوضحت له أن من طبعي أن حاجاتي الجسمانية تعرقل كثيرا مشاعري • وفي اليوم الذي دفنت فيه أمي كنت متعبا جدا ، وكان النوم يسيطر عليّ ، الى درجة أني لم أتنبه الى ما كان يحدث • والشيء الذي أستطيع أن أؤكده ، هو أني كنت أفضل ألا تموت أمي • ولكن لم تبد على المحامي امارات الارتياح ، وقال لي : ان هذا غير كاف •

وفكر قليلا ثم سألني عما اذا كنت في هذا اليوم قد قهرت مشاعري الطبيعية • فقلت له : كلا، فهذا غير صحيح • وحينئذ رمقني بنظرة غريبة، كما لو كنت قد أثرت اشمئزازه• وقال لي بشيء من الخبث : ان مدير الملجأ وموظفيه ستسمع أقوالهم على أية حال باعتبار أنهم شهود وأن هذا قد يسيء الى موقفي أبلغ اساءة • فوجهت نظره الى أن هذه القصة ليس لها علاقة بقضيتي ، ولكنه أجاب فقط بأنه من الواضح أنه لم تكن لي علاقات مع العدالة •

وغادر الحجرة وقد بدا عليه الكدر • وكنت أود أن أستبقيه لكي أقول له اني في حاجة الى عطفه ، ليس لكي يدافع عني بطريقة أفضل ، ولكن لان هذا شيء طبيعي • ولا سيما لاني وجدت أني وضعته فيموقف حرج • انه لم يفهمني ولم يشأ أن يفعل ذلك بصورة كافية • وكانت لدي رغبة في أن أؤكد له اني مثل غيري من الناس •• بالتأكيد مثل غيري من الناس • ولكني أدركت في قرارة نفسي أن كل هذا لن يجدي كثيرا ، وتخليت عن التفكير في ذلك بدافع الكسل •

وبعد قليل استدعيت مرة أخرى أمام قاضي التحقيق • كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وفي هذه المرة كان مكتبه يغمره الضوء الذي لم تستطع

الستائر المصنوعة من نسيج خفيف أن تمنعه من دخول الغرفة • كان الجو حارا جدا • وطلب مني الجلوس، ثم قال لي في كثير من الادب ان المحامي الخاص بي لم يستطع الحضور بسبب انشغاله بقضية أخرى • وأضاف أن من حقي ألا أجيب على أسئلته ، وأن أنتظر حضور المحامي لكي يشهد التحقيق وقلت : اني أستطيع أن أجيب وحدي • وحينئذ لمس باصبعه زرا على المنضدة ، فحضر كاتب وجلس ملاصقا لظهري •

وجلس كل منا على مقعد « فوتيه » مريح ، وبدأ الاستجواب • وقال لي أولا : ان الصورة التي رسمت عني تشير الى أن من طبعي الصمت والانطواء ، وأنه يريد أن يعرف رأيي في هذا • فأجبت قائلا : ما دام ليس عندي شيء مهم أقوله ، فاني أفضل التزام الصمت ، وابتسم كما فعل أول مرة ، وقال : ان هذا هو عين العقل ، وأضاف قائلا : على كل حال ليس لهذا أي أهمية • وسكت ، ثم نظر اليّ ، وفجأة انتصب واقفا ليقول لي بسرعة : ان ما يهمني •• هو أنت • ولم أفهم جيدا ما يعنيه بذلك ؛ ولهذا فلم أجب بشيء •• ثم أضاف قائلا : ان في تصرفاتك شيئا يثير حيرتي • وأنا واثق أنك ستساعدني على فهمها • وقلت له : ان الامر كله في غاية البساطة • وحثني على أن أروي له ما وقع في يوم الحادث ؛ فرويت له ما سبق ان شرحته له : ريمون ، البلاج، الاستحمام، المشاجرة، ثم البلاج مرة أخرى ، النبع الصغير ، الشمس وطلقات المسدس الخمس• وكان يعقب على كل جملة بقوله : حسنا •• حسنا • ولما خلصت الى ذكر الجسد الممدد وافقني قائلا : حسنا • أما أنا فقد تعبت من تكرار القصة نفسها وبدا لي أني لم أروها قط •

وبعد لحظة صمت وقف وقال لي انه يريد أن يساعدني ، وأنه مهتم بأمري ، وأنه بمساعدة الله سيفعل شيئا لأجلي ، ولكنه يريد أولا أن يوجه اليّ بعض أسئلة • ومن غير تمهيد سألني عما اذا كنت قد أحببت

أمي ؟ فقلت له : نعم •• مثل كل الناس • ويبـدو أن الكاتب الذي كان يسجل أقوالي بانتظام حتى الآن على الآلة الكاتبة قد أخطأ في لسانه لانه اضطرب واضطر أن يعود الى الوراء • وحينئذ سألني القاضي ، من غير أن يكون في سؤاله منطق ظاهر : هل أطلقت الرصاصات الخمس دفعـة واحدة ؟ وفكرت قليلا ثم قلت : اني أطلقت رصاصة واحدة أولا ، ثم بعد ثوان أطلقت الرصاصات الاربع الاخرى •• وسألني : لماذا انتظرت بين الطلقة الاولى والطلقة الثانية ؟ وحينئذ أخذت أستعرض في ذهنـي مرة أخرى قصة البلاج الملتهب حرارة وأحسست بالشمس تلفـح جبهتي • ولكني في هذه المرة لم أجب على سؤاله • وفي خلال فترة الصمت التي أعقبت ذلك كان يبدو على القاضي الانفعـال • ثم جلس ، وأخذ يعبث بشعره ، ووضع مرفقيه على المكتب ومال ناحيتي قليلا وقال وقد اكتسبت سحنته شكلا غريبـا : لماذا •• لماذا أطلقت النـار على جسد راقد على الارض ؟ وهنا أيضا •• لم أعرف كيف أجيب • ومسح القاضي جبهتـه بيديه وكرر سؤاله بصوت متغير قليلا : لماذا ؟ يجب أن تقول لي السبب •• لماذا ؟ ولكني لزمت الصمت أيضا •

ونهض فجأة ، وسار بخطوات واسعة نحو طرف الغرفة وفتح درجا في دولاب السجلات وأخرج منه صليبا من الفضـة عليه صورة المسيح أخذ يلوح به تجاهي • وصاح بصوت متغير ويكاد يكون مرتعشا : هل تعرف هذا ؟ فقلت : نعم •• بالطبع • فقال لي بسرعة وبطريقة عاطفيـة انه يؤمن بالله ، وانه يعتقد انه لا يوجـد انسان ، مهما تكن ذنوبه ، لا يصفح عنه الله ، ولكن لا بد لكي يتحقق ذلك ، ان يؤكد الانسان ندمه بحيث يصبح كطفل صافي الروح ، مستعد لاستقبال كل شيء ، وكان مائلا بجسده على المنضدة وهو يحرك صليبه فوقي تقريبا • وأقول الحق •• فاني لم أتنبه كثيرا للادلة والافكار التي ساقها ، أولا لاني كنت أشعـر بحر شديد ، ثم لانه كان في مكتبه ذباب اكبير الحجم لا يفتأ يحط على

وجهي ، هذا فضلا على انه أثار بعض الخسوف في نفسي • وأعترف في الوقت نفسه بأن الامر كان مضحكا لانه في نهاية المطاف كنت أنا المجرم وكان ينبغي أن أتابعه • وقد استمر في حديثه على أية حال • وفهمت الى حد ما أنه يرى أنه لا توجد سوى نقطة واحدة غامضة في اعترافي ، وهي واقعة انتظاري بعض الوقت بين اطلاق الرصاصة الاولى والرصاصة الثانية • وباقي الاعتراف كان لا غبار عليه ، أما النقطة المذكورة فانه لم يفهمها •

وكنت على وشك أن أقول له : انه مخطيء في عناده ، فان هذه النقطة الاخيرة ليست لها كل هذه الاهمية • ولكنه قاطعني وسألني لآخر مرة ، وقد انتصب واقفا على قدر ما يستطيع : هل تؤمن بالله ؟ فأجبت بالنفي • وحينئذ جلس وقد استبد به الغضب • وقال لي : ان هذا مستحيل ، وان جميع الناس يؤمنون بالله ، حتى هؤلاء الذين يشيحون بوجوههم عنه • وأضاف قائلا : ان ايمانه بالله لا يتزعزع ، وانه لو كان يشك في ذلك لاصبحت حياته بلا معنى • وقال لي متعجبا : هل تريد أن تصبح حياتي بلا معنى ؟• وكان من رأيي ان هذا شيء لا يهمني ، وقد أفصحت له عن ذلك • ولكنه مد يده ، عبر المنضدة، ووضع المسيح تحت عيني ، وصاح بطريقة غير معقولة : أما أنا ، فاني مسيحي • واني لأطلب من هذا (يقصد المسيح) أن يغفر لك خطاياك • لماذا لا تستطيع أن تؤمن بأنه تعذب من أجلك ؟• ولاحظت أنه يكلمني من غير تكلف ، ولكنني لم أعد أهتم بذلك كثيرا • وكانت حرارة الجو تزداد باطراد • وكعادتي ، حينما أريد التخلص من شخص أجد صعوبة في الاصغاء اليه ، تظاهرت بأني أوافقه على ما يقول • وكم كانت دهشتي حينما أعلن انتصاره قائلا: هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ ألا يعني هذا انك تؤمن به وأنك ستفوض اليه أمرك ؟• ولكني ، بالطبع ، قلت له : كلا •• مرة أخرى •• فتهاوى فوق مقعده •

كان يبدو عليه أنه متعب جدا . وظل لحظة صامتا ، في الوقت الذي كانت فيه الآلة الكاتبة ، التي لم تتوقف قط عن متابعة الحديث ، تسجل العبارات الاخيرة . ثم نظر اليّ بامعان .. بشيء من الحزن، وتمتم قائلا: انني لم أشاهد مطلقا روحا عنيدة مثل روحك . ان المجرمين الذين مثلوا أمامي كانوا يبكون دائما أمام هذه الصورة التي تمثل الالم . وكنت على وشك أن أجيب بأن هذا صحيح لانهم كانوا مجرمين. ولكني تذكرت اني أنا أيضا مثلهم . وكانت هذه فكرة لم أستطع الاعتراف بها . وحينئذ نهض القاضي كأنه يريد أن يعلن أن الاستجواب قد انتهى . ولكنه فقط سألني ، وقد بدا عليه الاجهاد : هل كنت نادما على الذنب الذي ارتكبته؟ وفكرت قليلا ثم قلت : اني لا أشعر بندم حقيقي وانما أشعر بالاحرى ببعض المضايقة . وخيّل لي أنه لم يفهم كلامي . ولكن الامر انتهى عند هذا الحد في ذلك اليوم .

وقد رأيت قاضي التحقيق كثيرا بعد ذلك . ولكني كنت أذهب اليه برفقة المحامي في كل مرة . وكان الامر يقتصر على الاستفهام مني عن بعض النقط فيما يتعلق بتصريحاتي السابقة ، او كان القاضي يناقش المحامي في بعض أوجه الاتهام . ولكنهما في الحقيقة لم يشغلا نفسيهما بي قط في هذه الاوقات . وشيئا فشيئا بدأت لهجة الاستجواب تتغير وأصبح واضحا أن القاضي لم يعد يهتم بي ، وأنه انتهى من اتخاذ قرار بشأن قضيتي . ولم يعد يحدثني عن الله ، كما لم أعد أراه منفعلا كما حدث في أول مرة . والنتيجة أن محادثاتنا أصبحت اكثر ودا ، وأصبح الامر مقصورا على بعض الاسئلة ، ثم على قليل من المناقشة مع المحامي وانتهى الاستجواب . وأخذت قضيتي مجراها ــ حسب تعبير القاضي ذاته ــ وأحيانا .. حينما تكون المحادثات ذات صبغة عامة ، كانوا يزجون بي فيها . وبدأت أتنفس الصعداء . وفي هذه الساعات لم يعد أحد يعاملني بخبث . وأصبح كل شيء يسير سيرا طبيعيا ، منظما ، متزنا ، الى حد أنه

بدأ يساورني هذا الاحساس المضحك وهو اني « أصبحت جزءا من العائلة » . وفي نهاية الاحد عشر شهرا التي استمر خلالها التحقيق ، أستطيع أن أقول : ان مما أثار دهشتي اني لم أستمتع بشيء قدر استمتاعي باللحظات النادرة التي كان القاضي يقودني فيها الى باب مكتبه وهو يربت على كتفي قائلا بلهجة ودية : هذا هو كل المطلوب اليوم أيها السيد غير المؤمن بالمسيح . وكنت أجد نفسي حينئذ بين يدي رجال الشرطة .

الفصل الثاني

هناك أشياء لم آكن أحب التحدث عنها قط • ولما دخلت السجن أيقنت •• بعد انقضاء عدة أيام •• أنني لن أتكلم عن هذا الجزء من حياتي •

وفيما بعد ، وجدت أن هذا النفور لا أهمية له وليس له مبرر • والواقع أني لم آكن أحس بأني في السجن في خلال الايام الاولى ، لاني كنت أنتظر بشكل غامض حادثا جديدا • وقد بدأ كل شيء فقط عقب الزيارة الاولى والوحيدة لماري • ومنذ اليوم الذي تسلمت فيه خطابها ، والذي قالت فيه انه لا يسمح لها بالحضور لانها ليست زوجتي، أحسست في زنزانتي بأني في بيتي ، وأن حياتي قد توقفت • وفي اليوم الاول الذي قبض عليّ فيه ، حجزت أولا في حجرة كان يوجد فيها عدد من المقبوض عليهم ، ومعظمهم من العرب • وقد ضحكوا حينما رأوني ، ثم طلبوا مني أن أروي لهم ما فعلته فقلت لهم اني قتلت شابا عربيا ، فوجموا • ولكن بعد فترة من الوقت حل المساء، وشرحوا لي كيف أرتب الحصير الذي سأرقد عليه (وعرفت أني أستطيع أن أصنع وسادة بتكوير أحد طرفيه) وطوال الليل ، كان البق يجري على وجهي • وبعد عدة

أيام ، عزلت في زنزانة حيث كنت أرقد على لوح من الخشب ، وكان فيها وعاء لقضاء الحاجة ، وطست من الحديد ، وكان السجن يطل على المدينة، واستطعت من نافذة صغيرة ، أن أرى البحر . وذات يــوم كنت أمسك بالقضبان وأتجه بوجهي نحو الضوء حينما دخل أحد الحراس وقال لي ان هنالك زائرة تريد أن تراني . وفكرت في أنها قد تكون ماري وكانت هي فعلا ...

ولكي أصل الى قاعة الاستقبال ، سرت في دهليز طويل ، ثم نزلت على درج ، ووصلت الى دهليز آخر ، ودخلت قاعة كبيرة جدا يدخل اليها الضوء من كوة واسعة . وكانت القاعة مقسمة الى ثلاثة أقسام بحاجزين كبيرين من القضبان الحديدية يقطعانها بالعرض . وبين الحاجزين كانت توجــد مسافــة طولها ثمانية أو عشرة أمتار تفصل بين الزائرين وبين المسجونين . ورأيت مــاري قبالتــي بفستانهــا المخطط ، ووجهها المائل للسمرة . وكان الى جانبي نحو عشرة من المسجونين، معظمهم من العرب. وكانت ماري محاطة أيضا بزوار من العرب ، وكان الى يمينها ويسارها سيدتان احداهما كهلة صغيرة الجسم لها شفتان ضيقتان وترتدي ملابس سوداء ، والاخرى امرأة سمينة يتدلى شعرها من فوق رأسها وتتكلــم بصوت عال جدا مصحوب بحركات كثيرة .

ونظرا لبعد المسافة التي تفصــل بين الحاجزين ، اضطــر الزوار ، والمسجونون الى التحدث بصوت مرتفع جدا . ولما دخلت أصبت بدوار من ضجيج الاصوات التي كانت تصطدم بالجدران العالية العارية للقاعة، ومن الضوء الحاد الذي كان يمر في زجاج النوافذ ويندفع داخل القاعة التي تعتبر « زنزانتي » بالنسبة لها .. اكثر هدوءا وأقل ضوءا . وكان يلزمني بضع ثوان لكي أتأقلم مع هذا الجــو الجديد . ومــع ذلك فقد استطعت أخيرا أن أرى كل الوجــوه بوضوح ... ولاحظت أن أحــد

الحراس كان جالسا في نهاية الردهة بين الحاجزين • وكان معظم المسجونين العرب ، وكذلك أفراد أسرهم يجلسون القرفصاء وهم يواجهون بعضهم بعضا • وهؤلاء لم يكونوا يتصايحون • وبالرغم من الجلبة والضوضاء فانهم كانوا يستطيعون التفاهم بالتكلم بصوت خفيض جداء وكان حديثهم الخافت المنبعث على مستوى منخفض يشكل نغما مستمرا لمحادثاتهم التي تتقاطع فوق رؤوسهم • كل هذا لاحظته بسرعة وأنا أتقدم نحو ماري • وابتسمت لي بكل قوتها وهي ملتصقة بالحاجـز ، وقد وجدتها جميلـة جدا ؛ ولكنني لم أعرف كيف أقول لها ذلك •

وقالت لي بصوت مرتفـع جدا : كيف الحال ؟•• انك تبدو في صحة طيبة ••• هل تحصل على كل ما تريد ؟ فقلت لها : نعم ••• أحصل على كل شيء •

وسكتنا ••• وكانت ماري تبتسم باستمرار• وكانت المرأة السمينة تصيح وهي تكلم جاري ، وهو زوجها من غير شك ، وهو رجل طويل أشقر له نظرة صريحة •

وهاك مثلا للحديث الذي يدور بينهما :

صرخت المرأة من يافوخها قائلة :

لم تشأ جان أن تأخذه ــ فقال لها الرجل : نعم •• نعم ••

فعادت المرأة تصرخ : قلت لها انك ستسترده بعد خروجك ، ولكنها لم تقبل أن تأخذه •

وصاحت ماري أن ريمون يبلغني تحياته ، فقلت لها : شكرا • ولكن صوتي غمره صوت جاري الذي كان يسأل زوجتـه عن صحتها • وقد ردت عليه وهي تضحك : انها لم تكن في أي يوم أحسن منها الآن • أما جاري الذي الى يساري فقـد كان شابا صغيرا له يـدان رقيقتان ، ولم يتكلم مطلقا ••• ولاحظت أنه يقف قبالة المرأة العجوز ، وانهما يتطلعان

الى بعضهما بعضا بشدة ، ولكن لم يكن لدي وقت لانظر اليهما اكثر من ذلك لان ماري صاحت قائـلا : انه يجب أن أؤمل خيرا ... فقلت لها : « نعم » وفي الوقت نفسه كنت أتطلع اليها وبي شوق شديد لان أضـم كتفيها اليَّ وهي ترتدي هذا الفستان ذا النسيج الرقيق ، ولا أعرف ماذا يمكن أن يؤمل الانسان خارجه . ولكن ماري أحسنت قولا من غير شك حينما طلبت مني أن أؤمل خيرا ، لانها كانت تبتسم دائما . ولم أعد أرى سوى بريق أسنانها وثنيات عينيها الصغيره ... ثم صاحت من جديد :

ستخرج ... وسنتزوج ... وأجبت قائلا :

هل تعتقدين ذلك ؟ لاني لم أجد شيئا آخر أقولـه وحينئذ قالت بسرعة بصوت مرتفع جدا : « نعم ... وسيفـرج عنك ... وسنذهب للاستحمام مرة أخرى » . ولكن المرأة الاخرى صرخت وقالت انها تركت سلة لدى كاتب السجن ، وأخذت تعدد كل ما وضعته فيها ، وكان جاري وأمه يواصلان النظر الى بعضهما بعضا . وظل حديث المسجونين العرب وزوارهم متصلا .

وأحسست بأني شبه مريض ، وأردت أن أعود ، ولكنني كنت أريد أن أستمتع بوجود ماري . وحدثتني ماري عن عملهـا . وكانت تبتسم دائما . وكانت القاعة تضج بالكلام والصراخ . وكانت جزيرة الهـدوء الوحيدة تقوم الى جانبي ممثلة في الشاب الصغير وأمه العجـوز . وبدأ الحراس يعيدون المسجونين الى الداخـل ، واقتربت المرأة العجوز من القضبان ، وحينئذ أومأ أحد الحراس الى ابنها فقال : «الى اللقاء يا أمي» ... وأدخل يده بين قضيبين لكي يوميء لها ايماءة بطيئة وطويلة .

وخرجت المرأة في حين دخل رجل آخر في يده قبعة واحتل مكانها. وأدخل في القاعة مسجون أخذ يتكلم مع الزائر بحرارة ، ولكن بصوت

غير مرتفع لان القاعة قد أصبحت هادئة • وجـاء الحراس لكي يأخذوا جاري الذي الى يميني ، وقالت له زوجته دون أن تخفض صوتها •• كما لو كانت لم تلاحظ أنه لم يعد ثمة ضرورة للصراخ : خذ بالك من نفسك جيدا • ثم جاء دوري • وأومأت اليّ ماري بحركة تعني أنها تقبّلني •• وعدت مع الحارس قبل أن تمضي • كانت واقفة بلا حراك وقد ضغطت وجهها على الحاجز الحديدي وعلى شفتيها الابتسامة نفسها ، وقد انفرج فمها وتقلصت عضلاته •

وبعد وقت قليل على هذه الزيارة كتبت الى مـاري خطابا ، ومنذ هذه اللحظة بدأت تحدث الاشيـاء التي لم أكن أحب أن أرويها قط ، وعلى أي حال فانه ينبغي عدم المبالغة في ذلك ، وقد كان الامر أسهـل بالنسبة لي اكثر من غيري • ومن هذا •• فقد كان أشق شيء واجهته في بداية اعتقالي ، هو أنه كان لدي أفكار انسان يتمتع بحريته •

فمثلا كنت أشعر برغبة شديدة في أن أذهب الى البلاج وأن أنزل في البحر • وحينما كنت أتخيل صوت الامواج الاولى وهي تداعب قدمي وجسدي يدخل في الماء ، وما يصاحب ذلك من شعور بالتحرر والانطلاق، كنت لا ألبث أن أفيق من أوهامي وأحس بجدران السجن تكاد تنطبـق عليّ •• ولكن هذه التخيـلات لم تستمر سوى بضعة شهور ، وبعدها صارت لي أفكار السجين ، فكنت أنتظر النزهة اليومية التي كنت أقوم بها في فناء السجن ، أو أنتظر زيارة المحامـي ، وتعلمت كيف أدبر قضاء بقية وقتي ، وأدركت أنه اذا قدر لي أن أعيش داخل جذع شجرة جافة من غير ان يكون ثمة أي شيء يشغلني سوى النظـر الى السماء التي تعلو رأسي فاني حتما كنت سأتعـود على ذلك بالتدريج ، ولانتظـرت مرور الطيور والتقاء السحاب ، كما أنتظر هنا أربطة الرقبة الغريبة التي يرتديها المحامي ، وكما كنت أنتظر في زمن مضى يوم السبت من كل أسبوع لكي أقابل ماري وأعانقها •

ولكني بعد أن فكرت مليا وجدت أني لا أعيش في صحراء جرداء ، وان هناك في العالم من هم أسوأ حالا مني . وكانت هذه هي فكرة أمي : وكانت دائما ترددها ، وانتهى الامر بأن أصبحت متعودا على كل شيء .

وكانت الشهور الاولى قاسية ، صعبة . ولكن الجهد الذي بذلته ساعدني على اجتيازها . فمثلا كانت تعذبني الرغبة في المرأة . وكان هذا شيئا طبيعيا . فأنا شاب . ولم أكن أفكر في ماري بالذات ، وانما كنت أفكر في أية امرأة ... في كل النساء ... في كل أولئك اللاتي عرفتهن في جميع الظروف التي أحببتهن فيها ، الى حد أن امتلأت زنزانتي بجميع الوجوه وازدحمت برغباتي . وقد أدى ذلك الى اشاعة البلبلة في نفسي الى حد ما ، ولكنه ساعدني من جهة أخرى على قتل الوقت، وقد اكتسبت أخيرا عطف رئيس الحراس الذي يرافق ، في ساعة تقديم وجبات الطعام، عامل المطبخ . وكان هو أول من كلمني عن النساء ، وقد قال لي ان هذه هي أهم مشكلة تواجه غيري من المسجونين . وقلت له انني أعاني مثلهم ، وان هذه المعاملة غير عادلة . فرد قائلا : لكنهم لهذا السبب بالضبط وضعوك في السجن فقلت له ماذا يعني بعبارة : « لهذا السبب » فقال : نعم ... الحرية لقد حرموك من الحرية . ولم أكن قد فكرت من قبل في هذه النقطة ، ووافقته على قوله ، وقلت له : ان هذا صحيح ، والا فأين يكون العقاب ؟ فقال نعم ... انك تفهم الامور ... ولكن الآخرين لا يفهمون ... غير أنهم في النهاية يحاولون التنفيس عما يشعرون به من كبت بأية وسيلة . وغادرني رئيس الحراس بعد ذلك .

وكانت هناك أيضا مسألة السجاير . فحينما دخلت السجن أخذوا مني حزامي وأربطة حذائي ، ورباط عنقي ، وكل ما كنت أحمله في جيوبي ، وبخاصة السجاير . ولما وضعت في الزنزانة طلبت منهم أن يردوها الي ، ولكنهم قالوا لي ان هذا ممنوع . وكانت الايام الاولى

بالغة القسوة ، ولعل هذا كان أشد ما أوجعني وآلمني . وكنت أمص قطع الخشب التي كنت أنتزعها من ألواح سريري ... وكنت أشعر طـوال النهار برائحة التبغ في خياشيمي . ولا أدري لماذا أحـرم من شيء كهذا لا يسبب ضررا لاحد . وفهمت فيما بعد ان هذا أيضا جزء من العقاب . ولكن انتهى الامر بأن تعودت على عدم التدخين وأصبحت هذه العقوبة لا وجود لها ..

وباستثناء مثل هذه المضايقات لم أكن أشعر بتعاسة كبيرة .. وكانت كل المشكلة هي كيف أقتل الوقت . ولكن انتهى الامر بأن أصبحت لا أتضايق من أي شيء منذ تعلمت كيف أستعيد ذكرياتي . فكنت أحيانـا مثلا أشرع في التفكير في غرفة منزلي ، وأتصور أني أجول فيها من ركن الى ركن وأحصي في خيالي كل ما فيها من أشيـاء . وكنت أفعل هذا في بداية الامر بسرعة ثم أصبحت عمليـات التذكر تستغرق بعد ذلك وقتا أطـول . ذلك لاني كنت أستعيد في ذهنـي كل قطعة أثاث ، وكل شيء داخلها أو عليها ، وتفاصيل هذه الاشياء بجميع وقائعها وألوانها . وانتهى الامر بعد بضعة أسابيع بأن أصبحت قادرا على احصاء كل ما في غرفتي.. وكلما أمعنت في تفكيري استطعت أن أخرج من ذاكرتي أشياء كنت قد نسيتها .. وأدركت حينئذ أنه اذا عاش رجل يوما واحدا في العالم الطليق، فانه بعد ذلك يستطيع أن يعيش في السجن ، من غير صعوبة ، مائة عام ، وأن يستعيد فيه من الذكريات ما يتيح له التغلب على مشاعر الضيـق والتبرم ... وهذا يعتبر ميزة الى حد ما .

وكانت هنالك كذلك مشكلة النوم . وفي البداية كان النوم يفر من عيني بالليل ولم أكن أنام مطلقا في النهـار . ولكن رويدا رويدا بدأت أنام أيضا بالنهار . وأستطيع أن أقول اني في خلال الشهور الاخيرة كنت أنام ست عشرة او ثماني عشرة ساعة في اليوم . ولم يكن يتبقى بعد ذلك

سوى ست ساعات كنت أمضيها في تناول الطعام وقضاء الحاجات الطبيعية واستعادة ذكريات قصة تشيكوسلوفاكيا •

فما هي هذه القصة ؟

كنت قد عثرت بين المرتبة المصنوعة من القش ولوح الخشب الذي على سريري ورقة قديمة من صحيفة تكـاد تكون ملتصقة في القماش ، وبلغ من قدمها أنها أصبحت صفراء اللون وشفافة • وكانت هذه الورقة تحوي قصة ، ضاعت بدايتها ولكن يفهم أنها حدثت في تشيكوسلوفاكيا• ومجمل هذه القصة أن رجلا رحل من قرية تشيكية سعيا وراء رزقه ولكي يجمع ثروة ، وبعد خمسة وعشرين عاما عاد الى قريته مع زوجته وطفله بعد أن أصبح غنيا واسع الثراء •

وكانت أمه تدير فندقا مع أخته في القريـة • ولكي يفاجئهما ترك زوجته وطفله في فندق آخر وذهب الى أمه التي لم تتعرف عليه حينما رأته • ومن قبيل الدعابة فكر في أن يستأجر غرفة عندها • وتبين لأمـه وأخته ، وكانتا لم تعرفا حقيقته بعد ، أنه يحمل أموالا طائلة • فلما جن الليل فاجأتاه وقتلتاه بمطرقة لكي تسرقا أمواله ، وألقتا بجثته في النهر • وفي الصباح حضرت زوجته وكشفت لهما عن شخصية النزيل ، من غير أن تدري بما حدث له • فلم يكن من الام الا ان شنقت نفسها • أما أخته فقد ألقت نفسها في بئر •

وقد قرأت هذه القصة الآ[illegible] فقد كانت تبـدو لي ، من ناحية ، غير محتملة الوقوع ، وكانت [illegible] من ناحية أخرى طبيعية ، وعلى أي حال فان الرجل كان يستحق الى حد ما ما وقع له ، وكان ينبغي عليه ألا يهزل في موقف جاد •

وهكذا كان الوقت يمر ، مع ساعات النوم ، والذكريات ، وقراءة هذه القصة ، وتبدل النور والظلام • وكنت قد قرأت أن المرء يفقـد في السجن فكرة الزمن • ولكن هذا لم يكن له معنى مهم في نظري • ولم أكن أفهم الى أي حد يمكن أن تصبح الايام طويلة أو قصيرة في الوقت نفسه وقد كانت هذه الايام طويلة من غير شك • وبلـغ من طولها انها أصبحت تفيض على بعضها بعضا وتتداخـل • حتى انها فقدت أسماءها أيضا • وكانت كلمتا الامس والغـد هما وحدهما اللذان لهما معنى في نظري •

ولما قال لي الحارس ذات يوم انه مضى عليّ في السجـن خمسة شهور ، صدقته ، ولكن لم أفهمه • فقد كانت الايام في زنزانتي متشابهة وكان ما يحدث في أي يوم يحدث مثله في أي يوم آخر ••

وفي هذا اليوم ، بعد انصراف الحارس، نظرت الى وجهي فيالسطل (القروانة) المصنوع من الحديد ، وبدا لي أن صورتي يبدو عليها الجد على الرغم من أني حاولت أن أبتسم • وحركت القروانة أمامي وابتسمت، ولكن صورتي ظلت عابسة حزينة •• وانتهى النهار وجاءت الساعة التي لا أريد أن أتكلم عنها، الساعة التي ليس لها اسم ، حيث تتصاعد ضوضاء المساء من جميع أدوار السجن ، في موكب من الصمت •

واقتربت من « المنور » وتطلعت مرة أخرى ، قبل أن يختفي آخر شعاع من الضوء ، الى وجهي • ووجدته لا يزال جادا ، عابسا • ولكن ماذا يثير الدهشة في ذلك •••؟

ألم أكن أنا أيضا عابس النفس •••؟ ولكن في الوقت نفسه ولأول مرة منذ عدة شهور ، سمعت بوضوح رنين صوتـي ••• وأدركت أنه يماثل ذلك الذي كان يرن منذ أيام طويلة في أذني ، وفهمت أني طـوال ذلك الوقت ••• كنت اكلم نفسي ••• وتذكرت حينئذ ما قالته الممرضة يوم دفنت أمي : « ••• كلا •• ليس هنا مخرج » وليس في استطاعة أي انسان أن يتصور رهبة المساء في السجون •

الفصل الثالث

أستطيع أن أقول في واقع الامر ان الصيف حل بسرعة محل الصيف. وكنت أعرف انه مع مجيء لفحات الحرارة الاولى سيحدث شيء جديد لي . وكانت قضيتي قد أدرجت في آخر دورة لمحكمة الجنايات . وكانت هذه الدورة تنتهي مع شهر يونيه . وقد افتتحت هذه المناقشات في الوقت الذي كانت الشمس فيه في أوج سطوعها في الخارج وآكد لي المحامي أن هذه المناقشات لن تستمر سوى يومين أو ثلاثة . ثم أردف قائلا : ومن جهة أخرى فان المحكمة ستكون متعجلة ، لان قضيتك ليست أهم قضية في هذه الدورة . فهناك قضية قاتل لأبيه ستنظر بعدها مباشرة .

وفي الساعة السابعة والنصف صباحا جاء الحراس واقتادوني الى عربة السجن التي أوصلتني الى المحكمة . وأدخلني الحارسان اللذان كانا معي الى حجرة صغيرة ظليلة وجلسنا ننتظر بالقرب من باب تسمع من خلفه أصوات ونداءات وضوضاء مقاعد ونقل أثاث من مكان لآخر — وقد ذكرتني هذه الضجة بحفلات الحي الراقصة ، حيث ترتب المقاعد بعد الغناء للرقص ، وقال لي الحارسان اننا ننتظر المحكمة . وقدم لي أحدهما سيجارة — ولكني رفضتها . وسألني بعد قليل : هل أنت مضطرب ؟

فأجبت بالنفي وقلت ان مشاهدة قضية شيء ممتع على أي حال • والواقع اني لم أشهد ، طوال حياتي ، جلسة في المحاكم • وقال الثاني : نعم •• ولكن شهود الجلسات يثير التعب في النهاية •

وبعد قليل دوى صوت جرس في القاعة • وحينئذ نزع الحارسان القيود الحديدية من يدي • وفتحا الباب • وأدخلاني في قفص المتهمين وكانت القاعة مزدحمة بالناس وتكاد تنفجر بهم • وعلى الرغم من وجود الستائر على النوافذ فقد كانت أشعة الشمس تتسلل من بعض الاماكن • وكان الجو خانقا • وكان زجاج النوافذ مغلقـا • وجلست وأحاط بي الحارسان • وفي هذه اللحظة شاهدت صفا من الوجوه أمامي • وكانت جميعها تتطلع اليّ وفهمت انهم المحلفون • ولكن لا أستطيع أن أقـول ماذا يميز بعضهم عن بعض وكان الانطباع الوحيد الذي تركه هذا المنظر في نفسي انني أمام مقعد ترام وان جميـع ركابه يرقبون الراكب الجديد لكي يستكشفوا ما يثير فيه الضحك والسخرية • واني أعرف جيدا ان هذه الفكرة بلهـاء لان المحلفين لم يحضروا الى هنا لكـي يروا ما يثير الضحك أو السخرية وانما جاؤا للبحث عن الجريمة • ولكن الفرق لم يكن كبيرا ، وعلى أي حال فقد كانت هذه هي الفكرة التي خطرت لي حينئذ •

ودهشت من كثرة عدد الناس في هذه القاعة المغلقة • ونظلعت اليها مرة أخرى • ولكنني لم أستطع أن أتعرف على أي وجه فيها • وفي بادىء الامر لم أتنبه الى أن كل هؤلاء الناس يتوقون الى رؤيتي • فلم أتعود أن يهتم أحد بشخصي • وكان لا بد لي من بذل جهد لكي أدرك انيسبب كل هذا الهياج • وقلت للحارس يا له من زحام !•• فقال لي ان هذا كله بسبب الصحف ، وأشار لي الى جماعة يجلسون بالقرب من منضدة أسفل مقعد المحلفين • وقال لي : ها هم • وقلت له : من هؤلاء ؟ فقال لي : انهم

الصحفيون . وكان يعرف أحد الصحفيين الذي رآه في هذه اللحظة فاتجه الينا . كان رجلا مسنا رقيقا له وجه عابس بعض الشيء . وصافح الحارس بحرارة شديدة .. ولاحظت في هذا الوقت أن كل الناس يتكلمون ويتجاذبون أطراف الحديث ويقابل بعضهم بعضا ، كما يحدث في النادي حينما يشعر المرء بالسرور لما يلتقي بأناس من بيئته نفسها . وخالجني احساس بأني شخص زائد على الحاجة وغير مرغوب فيه أو دخيل متطفل. ومع ذلك فقد التفت الصحفي نحوي مبتسما وقال لي انه يأمل أن يسير كل شيء على ما يرام بالنسبة لي . وشكرته ، ولكنه أردف قائلا :

لعلك تعرف أننا بالغنا بعض الشيء في نشر تفاصيل قضيتك . ولكن هذا يرجع الى الصيف ... فهو موسم ميت بالنسبة للصحف .. ولم يكن هناك ما يستحق النشر سوى قضيتك وقضية قاتل أبيه . وعقب ذلك أشار الى شخص بين الجماعة التي أتى منها ، وكان صغير الجسم تبدو عليه الطيبة ويشبه عرسا سمينا ويضع على عينيه عوينات كبيرة يحيط بهما السواد . وقال لي ان هذا هو المراسل الخاص لاحدى صحف باريس . وأضاف قائلا : انه لم يحضر لأجلك على أي حال . ولكن نظرا الى أنه مكلف بتغطية أنباء قضية قاتل أبيه ، فقد طلب منه أن يبعث في الوقت نفسه بأنباء قضيتك . وهنا أيضا وجدت أنه يجب أن أشكره . ولكني فكرت ان هذا قد يبدو مضحكا .. ثم أشار لي بحركة ودية من يده وغادرنا . وظللنا ننتظر بضع دقائق أخرى .

ووصل المحامي الخاص بي وهو يرتدي « الروب » ويحيط به كثير من زملائه . واتجه نحو الصحفيين ، وصافحهم . لقد تبادلوا الفكاهات وضحكوا ، وأمضوا وقتا طيبا ، الى أن دوى رنين الجرس في قاعة الجلسة. وعاد الجمهور الى مكانه . وجاءني المحامي ، وصافحني ، ونصحني بأن أجيب بايجاز على الاسئلة التي توجه اليّ ، وألا أكون أنا البادىء في الكلام ، وأن أعتمد عليه فيما يبقى بعد ذلك .

وسمعت الى يساري ضوضاء مقعد يسحب ، ورأيت رجلا طويلا رفيعا يرتدي زيا أحمر ، ويضع عوينات ، وجلس وهو يطوي ثيابه بعناية. وكان هذا هو المدعي العام .

وأعلن الحاجب وصول هيئة المحكمـة ، وفي هذه اللحظـة بدأت مروحتان كبيرتان تدوران وتئزان . ودخل ثلاثة قضاة ومعهم سجلات ، وكان اثنان منهم يرتديان ثيابا سوداء أما الثالث فكان يرتدي ثوبا أحمر، وساروا بسرعة نحو المنصة التي تشرف على القاعة . وجلس القاضي ذو الزي الاحمر على مقعد في الوسط ، ووضع قلنسوته أمامه . وجفف رأسه الصغير الاصلع بمنديل ، وأعان افتتاح الجلسة .

وكان الصحفيون قد أمسكوا بأقلامهم في أيديهم ، وكان يبدو عليهم جميعا عدم المبالاة مع شيء من السخرية . ومع هذا فان أحدهم ، وهو أصغر منهم كثيرا في السن ، ويرتدي حلة من الصوف الرمادي ، ورباط عنق أزرق ، ترك قلمه وأخذ ينظر اليّ . ولم أر في وجهه غير المتناسق سوى عينيه الفاتحتي اللون جدا ، اللتين كانتا تفحصاني بامعان من غير أن تعبرا عن شيء محدد . وخالجنـي احساس بأني أنا الذي أنظر الى نفسي . ولعل هذا هو السبب ـــ بالاضافة الى أني لم أكن ملما بقواعـد المكان ـــ في أني لم أفهم جيدا كل ما حدث بعد ذلك ، مثل عملية سحب القرعة الخاصة بالمحلفين، والاسئلة التي وجهها رئيسالمحكمة الىالمحامي، والى المدعي العام ، والى هيئة المحلفين (وبهذه المناسبة لاحظت أنه لدى كل سؤال كانت رؤوس المحلفين تتجـه في وقت واحد نحو المحكمة) . والقراءة السريعة لقرار الاتهام الذي تضمـن أسماء أشخاص وأمكنـة أعرفها ، كما تضمن أسئلة جديدة موجهة الى المحامي الذي يترافع عني .

ولكن رئيس المحكمة قال انه سينادي الشهود . وبدأ الحاجب يقرأ

أسماء استرعت انتباهي • ومن وسط هذا الجمهور الذي يتعذر الـمييز بين أفراده ، رأيت أشخاصا أعرفهم ينهضون واحدا وراء الآخر ثم يختفون بعد ذلك من باب جانبي ، وكان هؤلاء هم مدير الملجأ ، وبواب الملجأ ، وتوماس بيريز العجوز ، وريسون ، وماسون ، وسالامانو ، وماري التي أومأت اليّ بحركة تنم عن القلق • وفي الوقت ، الذي استولت عليّ فيه الدهشة لاني لم أستطع أن ألمحهم من قبـــل ، اذا بالحاجب ينادي اسم الشاهد الاخير ، فنهض ، وهو « سيلست » ورأيت الى جانبـــه سيـــده المطعم الصغيرة الطيبة بجاكتتها ووجهها الواضح القسمات والذي ينم عن قوة الارادة • ولكن لم يكن لدي وقت للتفكير لان رئيس المحكمـــة شرع يتكلم • فقال ان المرافعة ستبدأ ، وانه يعرف أنه من غير المجدي أن يوصي الجمهور بالتزام الهدوء • وقال انه هنا لكي يدير المناقشات من غير انحياز وبروح موضوعية ، وان الحكم الذي ستصدره هيئة المحلفين سينطوي على روح العدالة • وأضاف قائلا انه على أي حال سيأمر باخلاء القاعة من الجمهور اذا وقع أقل حادث •

واشتد الحر في القاعـــة ، ورأيت الحاضرين يحركون الهواء أمـــام وجوههم بالصحف ، وقد ترتب على هذا ضجيج خافت مستمر • وأومأ رئيس الجلسة للحاجب ، الذي أحضر على اثر ذلك ثلاث مراوح من القش المجدول استخدمها القضاة الثلاثة على الفور •

وبدأ استجوابي بعد ذلك بلحظات • وأخذ الرئيس يسألني بهدوء ، بل أيضا ، كما لاح لي ، بنوع من الود • ووجهت اليّ المحكمة أسئلـــة لتستوثق من شخصيتي ، ومع أني تضايقت من ذلك الا اني وجدت أن هذا اجراء طبيعي جدا ، لانه من الخطـــورة بمكان محاكمة شخص عن جريمـــة قد يكون ارتكبها شخص آخر • ثم شرع رئيس الجلسة يسرد تفاصيل الوقائع المنسوبة اليّ ، وكان يلتفت اليّ عقب كل ثلاث جمل

ليسألني : هل هذا صحيح ؟ ، وفي كل مرة كنت أجيب قائلا : نعم ، يا سيدي الرئيس . وذلك طبقا للتعليمات التي تلقيتها من المحامي . وقد استغرق هذا كله وقتا طويلا ، لان الرئيس سرد التفاصيل بكل دقة .

وفي خلال كل هذا الوقت كان الصحفيون يكتبـون . وأحسست بنظرات الصحفي وبنظرات صحفية صغيرة تبدو كأنها تمثال متحرك . وكان مقعد الترام (المحلفون) متجها كله الى ناحية الرئيس ، الذي كان يسعل ويقلب أوراق السجـل ، ثم لم يلبث ان التفت اليّ وهو يحرك مروحته .

وقال لي انه لا بد الآن من تناول مسائل قد تبدو في الظاهر غريبـة عن القضية ، ولكن ربما تكون لها صلة قوية بها . وفهمت أنه سيعود الى الكلام عن أمي وشعرت بأن هذا سيضايقني أشد مضايقة . وقد سألني لماذا وضعت أمي في الملجأ . فأجبت بأني فعلت ذلك لاني كنت أفتقر الى المال اللازم لتوفير العناية بها . وسألني عما اذا كان هذا قد كلفني أنا نفسي بعض النفقات ، فأجبت بأنه لا أمي ولا أنا كنا ننتظر شيئا من بعضنا البعض ، أو من أي شخص آخر ، وان كلانا قد تعود على حياته الجديدة .

وحينئذ قال الرئيس انه لا يريد أن يتمسك بهذه النقطة ، وسأل المدعي العام عما اذا كان يريد توجيه سؤال آخر اليّ .

وقد استدار هذا نحوي بظهره نصف دورة ، وقال ، من غير أن ينظر اليّ ، انه يريد أن يعرف ، بعد اذن الرئيس ، اذا كنت قد عدت وحدي الى النبع بقصد قتل الشاب العربي . فأجبت بالنفي . وحينئذ قال :

اذن لماذا كان المتهم (الذي هو أنا) مسلحـا ، ولماذا عاد الى هذا المكان بالذات ؟ فقلت ان هذا حدث بمحض المصادفة . فقال المدعي العام بلهجة محنقة :

اني أكتفي الآن بهذا القدر من الاسئلة • وأعقب ذلك بعض الهرج والمرج ، بالنسبة لي أنا على الاقل • وبعد أن تداولت المحكمة أعلن الرئيس رفع الجلسة وتأجيلها الى ما بعد الظهر لسماع أقوال الشهود •

ولم يكن لدي وقت للتفكير • فقد قادني الحراس الى عربة السجن وذهبوا بي الى السجن حيث تناولت الطعام • وبعد فترة قصيرة جدا ، ولكنها كانت كافية لكي أحس بأني متعب ، جاء الحراس ليقتادوني مرة أخرى الى المحكمة وأعيدت القصة من جديد ، ووجدت نفسي في القاعة نفسها وأمام الوجوه نفسها أيضا والفرق الوحيد أن الحرارة كانت أشد• ولشدة عجبي رأيت كما لو كان ذلك قد حدث بمعجزة ، كل المحلفين ، والمدعي العام ، والمحامي ، وبعض الصحفيين يمسكون هم أيضا بمراوح من القش • وكان الصحفي الصغير والصحفية الشابة في القاعة أيضا • ولكن لم تكن معهما مراوح ، وانما ظلا يحملقان في وجهي من غير أن يقولا شيئا •

وجففت العرق الذي كان يغطي وجهي ، ولم أتنبه قليلا الى ما يدور في الجلسة والى نفسي الا حينما سمعت الحاجب ينادي مدير الملجأ • وسئل عما اذا كانت أمي قد شكت مني ؟ فأجاب بالايجاب ، ولكنه قال ان من عادة نزلاء الملجأ الشكوى من أقاربهم • واستوضحه الرئيس اذا كانت قد أنحت عليَّ باللوم لاني وضعتها في الملجأ ، فأجاب المدير بالايجاب • ولكنه في هذه المرة لم يضف الى كلامه شيئا • وزد على سؤال آخر بأنه دهش لهدوئي في يوم جنازة أمي• وسئل عما يعنيه بكلمة هدوء • فنظر المدير حينئذ الى طرف حذائه وقال اني لم أرغب في رؤية أمي ، واني لم أبك مرة واحدة ، واني رحلت فورا بعد أن تم الدفن من غير أن ألبث بعض الوقت عند قبرها • وقال شيئا آخر أثار دهشته ، وهو أن أحد الحانوتية قال له اني لم أكن أعرف سن أمي • ومرت لحظة

صمت سأله الرئيس بعدها عما اذا كان قد قصدني أنا بالذات بأقواله • ولما بدا أن المدير لم يفهم السؤال قال له الرئيس :

« هذا هو القانون » ثم سأل المدعي العـــام عما اذا كان يريد أن يستجوب الشاهد ، فصاح قائلا : أوه •• كلا •• هذا يكفي • وقد قال ذلك باعتداد وهو يوجه اليّ نظرة ظافرة ، الى حد أني شعرت لأول مرة منذ عدة سنوات برغبة حمقاء في البكاء لاني أحسست كم أنا مكروه من كل هؤلاء الناس •

وبعد أن سأل الرئيس المحلفين والمحامـــي الخاص بي عما اذا كانوا يريدون توجيه أسئلة اليّ ، استمع الى أقوال بواب الملجأ وأعيدت معه ــ كما فعلت المحكمة مع جميع الآخرين ــ الاجراءات الرسمية نفسها ، ولما وصل الى مقربة مني نظر اليّ ثم أشاح بعينيـــه عني • وأجاب على الاسئلة التي وجهت اليه ــ وقال اني لم أشأ أن أرى أمي واني دخنت سجاير • واني نمت ــ واني شربت قهوة ممزوجة باللبن • وشعرت حينئذ بأن شيئا قد أثار القاعة كلها • وفهمت لاول مرة اني مذنب ، وطلب من البواب أن يعيد سرد حكاية القهوة الممزوجة باللبن والسجاير • ونظر اليّ المدعي العام وقد لمع في عينيه وميض ينم عن السخرية والتهكم • وفي هذه اللحظة سأل المحامي ، الذي يترافع عني ، البــواب عما اذا لم يكن قد دخن معي • ولكن المدعي العام احتج بعنف على هذا السؤال وقال : من هو المجـــرم هنا ؟ وما هي هذه الوسائل التي تهـــدف الى تلويث شهود الاتهام بقصد الحط من قيمة شهادتهم الدامغة ؟ وعلى الرغم من كل شيء فقد طلب رئيس الجلسة من البواب أن يجيب على سؤال المحامي فقال وقد بدا عليه الاضطراب : انني أدرك جيدا اني كنت على خطأ ولكني لم أجرؤ على رفض السيجارة التي قدمها لي هذا السيد • وأخيرا سئلت عما اذا كان لدي شيء أريد أن أضيفه • فقلت : كلا •• لا يوجد شيء فقط

أريد أن أقول ان الشاهد على حق • فالحقيقـة اني أنا الذي قدمت له السيجارة •• وحينئذ نظر اليّ البـواب بشيء من الدهشة وبنوع من الامتنان •• وتردد قليلا ثم قال : انه هو الذي قدم لي القهوة الممزوجـه باللبن : وصاح المحامي الذي يترافع عني وفي صوته نبرة من الشعـور بالظفر بأن على المحلفين أن يضعوا هذا الاعتراف موضع الاعتبار ، ولكن المدعي العام أرسل صيحة مدوية من فوق رؤوسنا قائلا : نعـم ••• ان السادة المحلفين سيضعون هذا الكلام موضع الاعتبار • وسيدركون أن أي شخص غريب يحق له أن يطلب قهوة •• ولكن أي ابن ينبغي عليه أن يرفض احتساءها أمام جثة تلك التي منحته الحيـاة • وعاد البواب الى مقعده •••

ولما جاء دور توماس بيريز ، اضطر الحاجب أن يسنده حتى منصة المحكمة • وقال بيريز انه كان يعرف أمي على وجه خاص • وانه لم يرني سوى مرة واحدة ، في يوم الجنازة • وسئل عما فعلتـه في هذا اليـوم فأجاب : لعلكم تعلمون اني في هذا اليوم كنت في غاية الالم • ولهذا فلم أر شيئا • فقد كان الالم الذي أحس به فظيعا ـ حتى انه أغمي عليّ • ولهذا فاني لم أستطع أن أرى السيد • وسأله المدعي العام عما اذا كان على الاقل لم يرني أبكي فأجاب بالنفي • فصاح المدعي العام بدوره : أرجو أن يضع السادة المحلفون هذا موضع الاعتبار • وظهر الغضب على وجه المحامي الذي يترافع عني • وسأل بيريز في لهجة بدت لي أنها تنطوي على المبالغة اذا كان قد رأى اني لم أبك • فأجاب بيريز بالنفي ، وضحك الجمهور ، وقال المحامي حينئذ بلهجة قاطعة ، وهو يرفع كم « الروب » : ها أنتم هؤلاء ترون صورة هذه القضية •• فكل شيء حقيقي ••• ولا يوجد أي شيء حقيقي !• وظل وجه المدعي العام متجهما وأخذ يعبث بقلمه في السجلات •

وبعد خمس دقائق رفعت فيها الجلسه وقال لي حلالها لمحامي : ان كل شيء يسير على ما يرام . استمعت المحكمة الى سيلست بناء على طلب الدفاع . وكان الدفاع هو أنا .. وكان سيلست ينظر ناحيتي بين حين وحين وهو يدير بين يديه قبعته المصنوعة من القش . وكان يرتدي الحله الجديده التي كان يرتديها حينما يذهب معي في أيام الآحاد الى حفلات سباق الخيل . ولكني أعتقد انه لم يستطع أن يرتدي اليافه لانه كان يضع فقط زرارا من النحاس يشد طرفي رقبة قميصه المقفل . وسئل هل كنت زبونا عنده فقال : « نعم .. ولكنه كان أيضا صديقي » .. وسئل عن رأيه فيّ ، فقال : اني كنت رجلا ، وسئل ماذا يعني بذلك فقال : ان كل الناس تعرف ما يعنيه بذلك . وسئل عما اذا كنت شخصا منطويا على نفسي . فقال : اني فقط لم أكن أتكلم في شيء لا يهم . وسأله المدعي العام هل كنت أدفع له ثمن الطعام بانتظام فضحك سيلست وقال : هذه مسائل خاصة بيننا .. وسئل أيضا عن رأيه في الجريمه التي ارتكبتها . فوضع حينئذ يديه على الحاجز الذي يفصل بين الجمهور والمحكمة ، وأيقنت أنه قد أعد شيئا . ثم قال : بالنسبة لي ... فانها مصيبة . وهي مصيبة يعرف كل الناس مداها .. انها مصيبـــة تترك الانسان من غير دفاع . حسنا .. انها مصيبة بالنسبة لي ... وأراد أن يواصل كلامه . ولكن الرئيس قال له ان هذا يكفي . وانه يشكره . وظل سيلست مشدوهـــا لحظة ، ولكنه لم يلبث أن قال انه يريد أن يتكلم . وحينئذ طلب منه أن يوجز فقال مرة أخرى ان هذه مصيبة . فقال له الرئيس : نعم ، هذا مفهوم ولكننا موجودون هنا لنحكم على المصائب التي من هذا النوع .. ونحن نشكرك . وحينئذ نظر سيلست نحوي . وبدا لي أن عينيه تلمعان وأن شفتيه ترتجفان . وانه يريد أن يسألني عما اذا كان يستطيع أن يفعـــل شيئا آخر ولكني لم أقل شيئا . ولم أقم بأية حركة . ولكنها كانت أول مرة في حياتي أشعر فيها بالرغبة في أن أعانق رجلا . وأمره الرئيس مره

أخرى بأن يعود الى مكانه . فرجع الى مقعده وجلس . وطوال الجزء الباقي من الجلسة ظل قابعا في مكانه وهو منحن قليلا الى الامام وساعداه على ركبتيه ، والقبعة المصنوعة من القش بين يديه ، ويستمع الى كل ما يقال .

ودخلت ماري وكانت تضع فوق رأسها قبعة . وكانت حتى ذلك الوقت جميلة ولكنني كنت أحبها أكثر بشعرها المتهدل ، وكان يبدو عليها التوتر الشديد وفي الحال سئلت : منذ متى كانت تعرفني . فحددت التاريخ الذي كانت تعمل في خلاله في المكتب معي . وأراد الرئيس أن يعرف مدى علاقاتها معي ، فقالت انها كانت صديقتي، وأجابت على سؤال آخر بأنها كانت تنوي فعلا الزواج بي . وسألها المدعي العام فجأة ، وهو يقلب في أوراق سجل : منذ (متى) ترجع علاقتنا فحددت التاريخ. فقال، بعدم اكتراث ، انه يبدو أن هذا كان غداة وفاة أمي ، ثم قال بشيء من السخرية انه لا يريد التمسك باثارة موقف دقيق . وانه يفهم جيدا مدى تأنيب ضميرها لها . ولكن (وهنا احتد صوته) واجبه يملي عليه أن يرتفع فوق قواعد المجاملة . وحينئذ طلب من ماري أن تلخص ما حدث في اليوم الذي عرفتها فيه . ولكنها لم تشأ أن تتكلم ، ولكن أمام الحاح المدعي العام تكلمت عن واقعة ذهابنا للاستحمام في البحر ، وذهابنا الى السينما وعودتنا الى منزلي . وقال المدعي العام انه عقب أن أدلت ماري بأقوالها في التحقيق ، أطلع على برامج السينما في هذا التاريخ للتثبت من صحة أقوالها ، وأردف قائلا : ان ماري ستقول بنفسها ما هو الفيلم الذي شاهدته حينئذ . فقالت بصوت بريء كان فيلما لفرناندیل[1] ولما انتهت من كلامها ساد القاعة صمت مطبق وحينئذ نهض المدعي العام وقد بدا عليه الجد الشديد . وقال بصوت يغلب عليه التأثر وهو ينطق

---

(١) فرنانديل ممثل فرنسي هزلي مشهور (المترجم) .

الكلمات ببطء : « سادتي المحلفين ، غداة اليوم الذي ماتت فيه أمه ، ذهب هذا السيد للاستحمام ، وبدأ علاقة غير مشروعة ، ذهب لكي يضحك أمام فيلم هزلي ، وليس لديَّ ما أقوله أكثر من ذلك » .. ثم جلس والصمت يسود المكان . ولكن فجأة بدأت ماري تنشج باكية وقالت ان الامر ليس بهذه الصورة وان هناك شيئا آخر .. وانها أرغمت على عكس ما كانت تريد أن تقول وانها تعرفني جيدا . واني لم أرتكب أي خطأ ، ولكن بايماءة من الرئيس، قادها الحاجب الىمكانها واستؤنفت الجلسة .

ولم يكد يصغي أحد بعد ذلك الى ما قاله ماسون من أني رجل شريف بل وحينما قال اني أيضا رجل طيب حسن الطوية . ولم يكن أحد يسمع أيضا الى سالامانو الذي قال اني كنت طيبا مع كلبه ، وحينما أجاب على سؤال عن أمي وعني قال : ان لم يكن لدي ما أقوله لها واني وضعتها لهذا السبب في الملجأ لكي أجنبها الشعور بالسأم والملل . وقد صاح سالامانو قائلا : ينبغي أن تفهموني ... ينبغي أن تفهموني ـ ولكن لم يبد أن أحدا يريد أن يفهم ، وأعادوه الى مكانه .

وبعد ذلك جاء دور ريمون الذي كان الشاهد الاخير . وأومأ اليَّ ريمون ايماءة صغيرة ، ثم قال على الفور اني بريء . ولكن رئيس الجلسة قال انه ليس مطلوبا منه اصدار أحكام ، ولكن المطلوب منه تقرير وقائع. وطلب منه أن ينتظر الاسئلة لكي يجيب . وسردت له المحكمة علاقته بالقتيل . فانتهز ريمون هذه الفرصة لكي يقول : ان القتيل هو الذي كان يكرهه منذ أن صفع أخته . ومع ذلك فقد سأله الرئيس عما اذا كان القتيل لم تكن لديه أسباب تدعوه الى كراهيتي . فأجاب ريمون بأن وجودي في البلاج كان بمحض المصادفة ، وحينئذ سأله المدعي العام : كيف اذن حدث ان الخطاب الذي كان أصل المأساة كتب بخط يدي .

فأجاب ريمون أن هذا حدث بمحض المصادفة ، فقال له المدعي العام وهو يريد أن يفحمه : ان المصادفــة قد استخدمت بكثرة في هذه القصة التي ترويها • وقال انه يريد أن يعـرف أيضا ما اذا كانت المصادفة أيضا قد منعتني من التدخل حينما صفع عشيقته • وأن المصادفة هي التي جعلتني أشهد معه في قسم الشرطه • وان المصادفة هي التي جعلت شهادتي صادرة عن مجرد المجاملة ورغبتي في ارضاء خاطره ! وأخيرا سأل ريمــون عن مصدر رزقه ولما أجاب بأنه يعمل في محل تجاري صاح المدعي العام موجها كلامه الى المحلفين : ان الشاهد معروف بأن مهمته « قواد » واني شريكه وصديقه ، وأضاف : ان الامر يتعلق بمأساة تتسم بأبشع ألوان النذالــة والانحطاط الخلقي • وأراد ريمون ان يدافع عن نفسه ــ كما احتــج المحامي الذي يترافع عني ــ ولكن قيــل لهما انه يجب عليهما أن ينتظرا حتى يكمل المدعي العام كلامه • وقال المدعي العام :

ليس لدي شيء كثير يمكنني أن أضيفه الى ما قلت • ثم سأل ريمون مشيرا اليّ : هل هذا صديقك ؟ فقال ••• نعم •• انه صاحبي • ووجه اليّ المدعي العام السؤال نفسه ، فنظرت الى ريمون الذي لم يحــول عينيه عني ، وقلت : نعم • وحينئذ اتجه المدعي العام نحو المحلفين وقال : ان الرجل نفسه ، الذي انغمس غداة موت أمه في أشد أنواع الفجــور المثيرة للخجل ، قد ارتكب جريمــة قتل لاسباب تافهة ، ولتصفية مسألة خلقية شنيعة •

وحينئذ جلس • وكان المحامي قد نفد صبره ، فصاح وهو يرفع ذراعيه الى أعلى بقوة ، حتى أن كمي الروب انحسرا وكشفا عن طيات قميصه ، وقال : وأخيرا ••• هل هو متهم بأنه دفن أمــه أو بأنه قتــل رجلا ؟• ودوت القاعة بضحك الجمهــور ، ولكن المدعي العام انتصب واقفا ، واتشح بالروب وقال ان الامر يقتضي قدرا كبيرا من السذاجة اذا

كان المحامـــي المحترم لا يريـــد أن يدرك أن بين الواقعتين علاقة قوية ، ومؤثرة ، وجوهرية • ثم أردف صارخا : نعم ••• اني أتهم هذا الرجل بأنه دفن أمه بقلب مجرم • ويبدو ان هذا الكلام كان له تأثير كبير في الجمهور فقد رفع المحامي كتفيه وجفف العرق الذي كان يغطي جبهته ، وبدا أنه قد ارتج عليه وفهمت ان الامور لا تسير على ما يرام بالنسبة لي •

ورفعت الجلسة • وفي اثناء خروجي من المحكمـــة لأركب عربـــة السجن شممت للحظة قصيرة روائح أمسيات الصيف ومتعت عيني بألوانها ـــ وفي ظلام سجني المتحـــرك تناهت الى أذنـــي ، وأنا متعب مكدود • الاصوات المألوفة في تلك المدينة التي كنت أحبها في الساعة نفسها التي كنت أنعم فيها بالسرور والغبطة حينما كنت حرا طليقا • وكانت صيحات بائعي الصحف في الفضاء المتسع وشقشقة العصافير الاخيرة في الميـــدان ونداء باعة « السندوتش » ، وأزيز عربات الترام في المنحنيات المرتفعـــة بالمدينة ، ووهج السماء قبل أن برخي الليل سدوله على الميناء ـــ كل هذا كان بمثابة علامات للطريق يمكن أن يهتدي بها الاعمى ، وكنت أعرفهـــا جيدا قبل أن أدخل السجن • نعم ••• كانت هذه هي الساعة التي كنت أشعر في خلالها ، منذ زمن أصبح يبدو لي بعيدا جدا ، بالغبطة والهناء ، وكنت حينئذ أنام نوما خفيفا من غير أحلام ، ولكن يبـــدو أن تغييرا قد حدث لان الشيء الذي ينتظرني الآن هو الزنزانة التي أقبع فيها في انتظار الغد ••• عجبا ••• ان الدروب المألوفة المرتسمة في سماء الصيف يمكن أن تؤدي أيضا الى السجون كما تؤدي الى النوم البريء •

الفصل الرابع

ان الانسان يجد متعة حينما يستمع الى الناس وهم يتحدثون عنه ، حتى ان كان يجلس على مقاعد المتهمين ، وفي خلال مناقشات المدعي العام والمحامي الذي يترافع عني تبين انهما تكلما كثيرا عني ، وربما كان حديثهما عني اكثر من حديثهما عن جريمتي . ولكن هل كانت هذه المرافعات مختلفة ؟ لقد كان المحامي يرفع ذراعيه ويعترف بأني مذنب ولكنه يتلمس لي الاعذار ، وكان المدعي العام يمد يديه ويؤكد اتهامي ، ولكن من غير أن يتلمس لي أي عذر . ولكن شيئا كان يضايقني بشكل غامض . فمع همومي كنت أشعر أحيانا بميل الى التدخل في المناقشات ولكن المحامي كان يقول لي حينئذ : أسكت .. فهذا أفضل لقضيتك . وكان يبدو لي ان هذه القضية تعالج بصورة ما بعيدا عني ، وكان كل شيء يتم من غير أي تدخل من جانبي ، وكان مصيري يبت فيه من غير أن يؤخذ رأيي . وكنت أحس بالرغبة بين حين وحين في أن أصرخ في وجه الجميع قائلا : ولكن بعد كل شيء .. من هو المتهم ؟ انها مسألة خطيرة أن يصبح الانسان متهما .. وان لدي شيئا أريد أن أقوله ولكني بعد أن أعمل فكري ، لم أكن أجد شيئا أقوله . ومن جهة أخرى ، فاني أعترف بأن المتعة التي يشعر بها المرء بحمل الناس على الانشغال به لا تدوم

طويلا • فمثلا مرافعة المدعي العام أدخلت السأم في نفسي بسرعة وفقط بعض الفقرات ، والحركات أو عبارات بأكملها متناثرة ومنفصلة عن الموضوع ككل ، هي التي كان لها تأثير في نفسي ، او اثارت انتباهي •

وكان جوهر فكرة المدعي العام ، اذا كنت قد فهمتها ، هي أني ارتكبت جريمتي مع سبق الاصرار ؛ أو هو حاول على الاقل أن يثبت ذلك • وقد قالها هو نفسه : سأقدم لكم الدليل على ذلك أيها السادة ، وسأقدمه لكم بطريقة مزدوجة على ضوء الوقائع الناصعة الوضوح أولا، ثم على ضوء النفسية القاتمة لهذه الروح المجرمة بعد ذلك — وقد لخص الوقائع ابتداء من يوم وفاة أمي • فذكر عدم مبالاتي ، وجهلي بسن أمي، وذهابي للاستحمام في اليوم التالي لوفاتها ، مع امرأة ؛ والسينما وفرنانديل ، وأخيرا عودتي الى منزلي مع ماري • وأمضيت وقتا محاولا أن أفهمه لانه قال « عشيقته » وهي في نظري كانت « ماري » فقط • ثم سرد بعد ذلك حكاية ريمون وقد تبينت أن طريقته في ذكر الوقائع لا تفتقر الى الوضوح ، وكان ما قاله جديرا بالاعجاب • لقد كتبت الخطاب كما قال ، بالاتفاق مع ريمون لاجتذاب عشيقته وتعريضها لمعاملة سيئة من جانب رجل « تحوم الشكوك حول أخلاقه » • وقمت على البلاج باستفزاز خصوم ريمون • وجرح ريمون وطلبت منه مسدسه ؛ ثم عدت وحدي لكي أستخدمه وقتلت الشاب العربي طبقا للخطة التي دبرتها ، ثم انتظرت • ولكي أتيقن من اني أنجزت المهمة كما ينبغي ، فقد أطلقت بعد ذلك أربع رصاصات بثبات تام ، وبنوع من العمد والتروي •

ومضى المدعي العام فقال : وهكذا أيها السادة • لقد رسمت لكم خيط الوقائع التي قادت هذا الرجل الى ارتكاب جريمة قتل ، وهو في حالة اصرار • فالمسألة اذن لا تتعلق بجريمة قتل عادية ، من ذلك النوع الذي يحدث من غير تفكير أو روية والذي يستحق أن تبحثوا له عن

ظروف مخففة • وهذا الرجل •• أيها السادة •• هذا الرجل ذكي • وقد استمعتم اليه ، أليس كذلك ؟ انه يعرف كيف يجيب • انه يعرف قيمة الكلمات • ولا يمكن القول انه ارتكب جريمته من غير ان يقدر جسامة جرمه •

وقد أصغيت جيدا الى ما قاله المدعي العام من أني شخص ذكي ولكني لم أفهم كيف يمكن أن تصبح صفات الانسان العادي تهما شنعاء ضد المذنب • كان هذا على الاقل هو الانطباع الذي شعرت به ، ولم أصغ بعد ذلك الى المدعي العام الى ان قال : هل أعرب حتى عن ندمه ؟ كلا ، أيها السادة •• ان هذا الرجل لم يظهر ولو مرة واحدة في خلال التحقيق تأثره من جرمه الفظيع وفي هذه اللحظة التفت الي وأشار نحوي باصبعه وهو يواصل الحملة من غير ان افهم في الواقع سبب ذلك •• وليس ثمة شك في اني لم أستطع أن أمنع نفسي من الاعتراف بأنه كان على حق • فأنا لم أندم كثيرا على ما فعلت • ولكن الذي أدهشني هو كل هذا العداء الذي يظهره نحوي • وقد أردت أن أبذل محاولة لكي أشرح له بطريقة عادية ، بل بالاحرى بطريقة ودية ، انه لم يكن في استطاعتي مطلقا أن أندم على أي شيء ، فقد كنت دائما مأخوذا بما سوف يحدث •• بما يمكن أن يقع اليوم او غدا ، ولكن لم يكن في وسعي بطبيعة الحال أن أتكلم ، في الظروف التي وضعت فيها ، مع أي شخص في هذا الشأن • ولم يكن من حقي أن أبدو لطيفا متوددا ، أو أن أظهر نوايا طيبة • ثم حاولت أن أصغي بعد ذلك لان المدعي العام بدأ يتكلم عن روحي •

لقد قال انه عكف عليها يفحصها ولكنه لم يجد شيئا ، أيها السادة المحلفون •• وقال انه في الواقع ليس عندي روح ، أو أي شعور انساني ، أي مبدأ من المبادىء الخلقية التي تحرس نفوس الناس • ثم أردف

قائلا : « ولا شك اننا لا نستطيع أن نلومه على ذلك . فان ما عجز عن الحصول عليه لا نستطيع نحن أن نشكو من أنه افتقر اليه . ولكن حينما يتعلق الامر بهذه المحكمه ، فان فضيلة التسامح السلبيه يجب ان تذوب في فضيلة أقل سهولة ، ولكنها أكثر سموا ألا وهي فضيلة العدالة ... ولا سيما حينما يصبح فراغ القلب الذي اكتشفوه في هذا الرجل وصمه في جبين المجتمع . حينئذ بدأ يتكلم عن موقفي تجاه أمي ؛ وأخذ يعيد ما قاله في خلال المناقشات ؛ ولكنه أخذ يسهب في ذلك اكثر مما فعل حينما كان يتكلم عن جريمتي ، وكان اسهابه من الطول بحيث لم أعد أحس في النهاية الا بحراره هذه الظهيره . وقد ظل هذا الاحساس يساورني الى أن توقف المدعي العام لحظـة ؛ لزم الصمت في خلالها ؛ ثم لم يلبث أن استأنف الكلام بصوت خفيض ونفاذ فقال : ان هذه المحكمـة نفسها ستحكم غدا ، أيها الساده ، في أشد الجرائم هولا . وهي : قتل الأب . وقال ان الخيال ليتراجع أمام مثل هذا الاعتداء الفظيـع ، وأضاف انه يأمل أن تبادر العدالة الى القصاص من غير ضعف : وقال انه لا يخشى أن يقول ان البشاعة التي توحي بها هذه الجريمـة أسلمته الى بشاعـة أخرى يحس بها نتيجة لتبلد شعوري وافتقاري الى الاحساس . وقال ان الشخص الذي يقتل أمه أدبيا ، يجب أن يعامله المجتمع المعاملة نفسها التي يستحقها من يغدر بأبيه . وأردف قائلا أن الاول يمهد السبيل أمام الثاني لكي يرتكب جرمه ، ولكي يعلن مشروعية هذا الجرم بصوره من الصور . ثم قال ، وهو يرفع صوته : انني مقتنع بذلك أيها الساده ، ولعلكـم لا تجدون كلامي متسما بالجرأة اذا قلت لكم ان الرجل الجالس أمامكم على هذا المقعد مذنب أيضا بجريمة القتل التي ستنظرها المحكمة غدا . وهو يجب أن يعاقب على ضوئها . وهنا أخذ المدعي العـام يمسح العرق من على وجهه اللامع . وقال أخيرا ان واجبه مؤلم ، ولكنه سيقوم به بعزم

وثبات • وقال اني لا أستحق الرحمة من مجتمع تجاهلت قواعده الجوهرية أو أن أطلب الشفقة من قلب أي انسان ثم قال: انني أطلب منكم رأس هذا الرجل ، واني لأطلب ذلك وأنا مستريح القلب لاني اذا كنت في خلال حياتي القضائية الطويلة قد طالبت كثيرا بتوقيع عقوبة الاعدام ، فاني لم أشعر مطلقا من قبل بالشعور الذي أحسه اليوم بأن هذا الواجب المؤلم يستند الى بواعث سامية ومقدسة ، ويستمد قوته من الهلع الذي اشعر به أمام وجه رجل لا أقرأ في ملامحه الا كل ما ينم عن الوحشية •

ولما جلس المدعي العام سادت لحظة صمت طويلة بعض الشيء • أما أنا فقد كنت أشعر بدوار من شدة الحرارة والذهول • وأخذ رئيس الجلسة يسعل قليلا ثم سألني بصوت خفيض عما اذا كان لدي شيء أقوله • فنهضت ، وقلت انه لم تكن عندي النية لقتل الشاب العربي • فقال ان هذا القول لم يتضح بعد جيدا من نظام دفاعي ، وانه يسعده ، قبل أن يستمع الى المحامي الذي يترافع عني ، أن يعرف الدوافع التي حدت بي الى ارتكاب جريمتي • فقلت بسرعة ، وأنا أخلط الكلمات قليلا وأحس بما في موقفي من سخرية ، ان هذا كان بسبب الشمس • وسمعت أصوات ضحك في القاعة • ورفع المحامي منكبيه ، ثم أذن له الرئيس بعد ذلك بالكلام • ولكنه قال ان الوقت أصبح متأخرا ، وأن مرافعته ستستغرق عدة ساعات ، وطلب التأجيل الى ما بعد الظهر • ووافقت المحكمة على طلبه •

وبعد الظهر اخذت المراوح الكبيرة تحرك باستمرار هواء القاعة الكثيف ، في حين اخذت المراوح الصغيرة المتعددة الالوان التي في ايدي المحلفين تتحرك مع بعضها في الاتجاه نفسه • وكانت مرافعة المحامي الخاص بي طويلة حتى خيل الي انها لن تنتهي • ومع ذلك فقد سمعته

مرة يقول : حقا .. لقد قتلته ، ثم استمر يتكلم على هذا النحو ويستخدم كلمة « أنا » كلما تكلم عني . وأدهشني ذلك كل الدهشة . وملت نحو احد الحراس وسألته عن سبب ذلك ، فطلب مني أن اسكت وبعد لحظة قال : ان كل المحامين يفعلون هذا ، أما أنا فقد جعلني ذلك أحس بأني ازداد ابتعادا عن القضية واني اتحول الى مجرد صفر ، وانه استعيض بالمحامي عني ، ولكن اعتقد اني في هذه اللحظة كنت بعيدا جدا عن قاعة الجلسة . ومن جهة اخرى فان المحامي بدا لي مضحكا . فقد تكلم عن عناصر الاستفزار بسرعة شديدة ثم اخذ هو ايضا يتحدث عن روحي ولكن بدا لي أنه أقل نبوغا بكثير من المدعي العام . وقد قال : لقد انهمكت أنا ايضا في بحث هذه الروح ، ولكني وجدتها ، على عكس ما قال ممثل النيابة العامة الموقر ، مثل الكتاب المفتوح . ثم قال انه قرأ في هذا الكتاب اني رجل شريف ، مجتهد منظم لا يكل ولا يمل ، مخلص للمكتب الذي أعمل فيه ، محبوب من الجميع ، وشديد الحنان على بؤس الآخرين وبلواهم ، ثم قال انه على يقين من أني كنت ابنا نموذجيا لم يأل جهدا في الانفاق على أمه على قدر ما يستطيع . ثم قال اني كنت اؤمل ان يتيح الملجأ للسيدة العجوز وسائل الراحةالتي كانت حالتي لا تسمح لي بتوفيرها لها . ثم أردف قائلا : واني لفي دهشة أيها السادة من هذه الضجة الكبيرة التي أثيرت حول هذا الملجأ . ثم ان مثل هذه المؤسسات، التي أثبتت انها عظيمة الفائدة، انما تقوم الدولة ذاتها بالانفاق عليها. ولكنه لم يتكلم عن الجنازة ، وشعرت ان هذا الموضوع كان ينقص المرافعة . غير انه بسبب كل هذه العبارات الطويلة ، وكل هذه الايام والساعات التي لا تنتهي التي كانوا يتكلمون خلالها عن روحي ، خالجني احساس بأن كل شيء أصبح مثل الماء الذي لا لون له ، واصابني ذلك بالدوار .

واخيرا فأني اتذكر فقط انه في خلال مرافعة المحامي ، كنت أسمع

صوت بوق بائع المثلجات آتيا من الشارع ومخترقـا ردهات المحكمـة وقاعاتها ، لكي يرن في أذني • وهاجمتني ذكريات حياه لم تعد بعد ملكي، ولكني وجدت فيها أبسط ألوان النشوة وأروعها : روائح الصيف ، والحي الذي كنت أحبه ، تشكل السماء في المساء ، وضحكات ماري وفساتينها • ولم أعد أحس الا بالعجلة ، وبالرغبة في أن ينتهي كل شيء لكي أعـود الى زنزانتي حيث استقبل النوم • ولهذا لم أكد أسمع صوت المحامي وهو يصيح لكي يخنم مرافعته ، قائلا للمحلفين انهم لن يقبلوا ان يرساوا الى الموت رجلا شريفا ، ففد صوابه في لحظه ضل فيها سواء السبيل • وطلب تطبيق الظروف المخففة لجريمة لا بد اني سأقاسي بسببها تانيب الضمير الى الابد وهذا في حد ذاته يعتبر افضل عقاب • ورفعت المحكمـة الجلسة ، وجلس المحامي وفد بدا عليه الارهـاق • ولكـن زملاءه أقبلوا عليـه ليصافحوه • وسمعت بعضهم يقول له رائع ، يا عزيزي •• واراد احدهم ان يستشهد بي فقال لي : هيه •• ألبس كذلك ؟ ووافقته على رأيه ، لكن مجاملتي لم تكن مخلصة لاني كنت متعبا جدا •

وأخذ الوقت يمضي بسرعة ، وكانت الحرارة اقل قسوة • وتناهت الى سمعي بعض ضوضاء الشارع وأخذت أفكر في جو المساء المنعش وكنا جميعا في القاعة ننتظر • وكان كل ما ينتظره الجميع لا يخصني الا أنا وحدي • ورحت انظر الى القاعة ، لم يكن اي شيء فيها قد تغير منـذ أول يوم دخلتها • والتقى نظري بنظرات الصحفي ذي الجاكتة الرماديـة وجعلني هذا افكر في أني لم أبحث بنظري عن ماري طوال الجلسة • ان هذا لا يعني اني نسيتها ولكني كنت مشغولا بالتفكير طوال الوقت • رأيتها جالسة بين سيلست وريمون ، وأومأت الي بايماءة صغيرة كما لو كانت تريد ان تقول : « واخيرا •• » ورأيت وجهها المشوب بشيء من القلـق يبتسم ولكني أحسست بقلبي مهموما ، ولم ارد حتى على ابتسامتها •

وعادت المحكمة الى الانعقاد • وتليت على المحلفين قائمة طويلة من الاسئلة ، وسمعت مثل هذه العبارات : متهم بالقتل •• مع سبق الاصرار •• الظروف المخففة •• وخرج المحلفون وأخذني الحراس الى الحجرة الصغيرة التي كنت أنتظر فيها من قبل • وحضر اليَّ المحامي وكان يتكلم بذلاقة ، وحدثني بثقة ومودة لم أعهدهما فيه من قبل • وقال لي أن كل شيء سيكون على ما يرام ، وان الامر لن يتجاوز الحكم علي بالسجن بضع سنوات • وسألته عما اذا كانت توجد فرصة لعمل نقض اذا جاء الحكم على غير ما نشتهي • فأجاب بالنفي ، وقال ان الخطة التي أتبعها هي ألا يقدم مذكرات حتى لا يزعج المحلفين ويثير نفورهم ، وانه لا يمكن، تقديم نقض للحكم من غير اسباب • ووجدت كلامه معقولا وأيدت وجهة نظره • أضاف المحامي قائلا : وعلى أي حال ، فأمامنا الاستئناف • واقتنعت برأيه ، واحسست بأن النتيجة ستكون طيبة •

وانتظرنا فترة طويلة •• نحو ثلاثة ارباع الساعة على ما اعتقد ، وفي نهاية هذه المدة دق الجرس • وتركني المحامي قائلا : ان رئيس هيئة المحلفين سيتلو الردود • ولن يسمح لك بالدخول الا لسماع مضمون الحكم ، وسمعت صوت أبواب تصطفق واشخاص يجرون على درج لا أعرف اذا كان قريبا او بعيدا • ثم سمعت صوتا مكتوما يقرأ شيئا في القاعة • ولما دوى صوت الجرس مرة أخرى ، أحسست بالصمت يسود القاعة ، وبهذا الشعور الغريب الذي ساورني حينما لمحت الصحفي الشاب يحول عينيه عني • ولم انظر في اتجاه ماري ، فلم يكن ثمة وقت لذلك ، لان رئيس الجلسة قال في صوت غريب ان رأسي سيقطع في ميدان عام باسم الشعب الفرنسي ، وبدا لي أني فهمت المشاعر التي قرأتها على وجوه الجميع ، واعتقد انها كانت تنطوي على الاحترام • وكان الحراس في غاية

الرقة والوداعة معي . ووضع المحامي يده على معصمي . ولم اعد افكر في شيء . ولكن الرئيس سألني عما اذا كنت أريد أن أقول شيئا . وفكرت قليلا ثم قلت : « لا » . وحينئذ قادني الحراس الى خارج القاعة .

الفصل الخامس

رفضت للمرة الثالثة ان اقابل الكاهن فلم يكن لدي شيء يمكن ان اقوله ، ولم تكن عندي رغبة في الكلام • وكان ما يهمني في هذه اللحظة هو أن أفر من المقصلة وأن أعرف ما اذا كان يوجد مخرج من مصيري المحتوم ، ونقلت الى زنزانة اخرى وحينما كنت اتمدد فيها كنت أرى السماء ولا أرى شيئا غيرها • انني أمضي كل أيامي أرقب في وجهها تحول الالوان الذي يؤدي من النهار الى الليل ، انني أرقد واضعا يدي تحت رأسي انتظر ولا اعرف كم من المرات تساءلت عما اذا كانت ثمة امثلة لمحكوم عليهم بالاعدام استطاعوا الهرب من المقصلة الرهيبة واختفوا قبل التنفيذ واخترقوا حصار رجال الشرطة وانحيت على نفسي باللائمة حينئذ لاني لم أهتم من قبل بقصص تنفيذ احكام الموت وايقنت انه يجب على المرء ان يهتم دائما بمثل هذه المسائل ، ولكن الانسان لا يمكن مطلقا أن يعرف ما يخبئه له القدر • وقد قرأت ، مثل غيري من الناس اشياء من هذا القبيل في الصحف ، ولكن لا شك في انه كانت توجد كتب خاصة في هذا الموضوع لم يدفعني فضولي الى الاهتمام بها وقراءتها ، وربما لو كنت فعلت ذلك لوجدت فيها شيئا عن قصص الهرب ، وربما كنت قرأت

انه في حالة واحدة على الاقل توقفت عجلة المقصلة ، وان المصادفة أو الحظ قد غيرا مجرى الامور ولو مرة واحدة !! ان هذا كان يكفيني على اي حال . ان الصحف كانت تتكلم كثيرا عن دين للمجتمع ، لا بد في رأيها من دفعه ولكن الذي كان يشغل بالي هو البحث عن وسيلة للفرار .. عن وثبة تنقلني عبر الطريق الذي رسم لي ، عن رحلة الى الجنون تهيىء لـي جميع فرص الامل .. وبطبيعة الحال لم يكن ثمة امل الا في أن تزهـق روحي في أحد اركان الشوارع ، وانا اجري هاربا ، باحدى الرصاصات التي تطلق حينئذ نحوي ، ولكن بعد التفكير في كل الاحتمالات وجدت انه محظور علي الحصول على هذا الترف ، وان المقصلة هي التي ستأخذ أجلي .

وعلى الرغم من حسن طويتي فانني لم استطع ان اقبل هذه الحقيقة المهينة فقد وجدت ان هناك عدم تناسب مضحك بين الحكم الذي اقره وبين الاجراءات التي اتبعت منذ اللحظة التي نطق فيها بالحكم . فكون الحكم تلي في الساعة الثامنة مساء او انه كان من المحتمل ان يكون شيئا آخر ، وان الذي اصدره رجال يمكن ان يغيروا افكارهم كما يغيرون ملابسهم وانه صدر بأسم فكرة غير واضحة مثل الشعب الفرنسي (أو الالماني أو الصيني) أزال من هذا القرار كثيرا من جديته وعلى أي حال فقـد كنت مرغما على الاعتراف بأنه منذ اللحظة التي صدر فيها هذا الحكم اصبحت جميع نتائجه مؤكدة ومحققة مثل وجود هذا الجدار الذي اسحق جسدي عليـه ..

وتذكرت في هذه اللحظات قصة كانت قد روتها لي أمي عن أبـي الذي لم أره .. وربما كل ما اعرفه عن هذا الرجل هو ما قالته لي أمـي عنه : فقد ذهب ذات مرة لكي يشهد تنفيذ حكم الاعدام في شخص ارتكب

جريمة قتل وقد ذهب كارها وهو يشعر بالغثيان ولكنه ذهب على اي حال ، وحين عودته تقيأ جزءا من الطعام الذي تناوله في الصباح ، وقد جعلتني هذه القصة أتقزز من أبي بعض الشيء منذ ذلك الوقت ، أما الآن فاني قد فهمت ان هذا كان شيئا طبيعيا ، فكيف لم استطع ان ادرك انه لا يوجد شيء اخطر واكثر اهمية من تنفيذ حكم الاعدام وانه في الوقت نفسه أكثر الاشياء اثارة لفضول الانسان ، ولو قدر لي أن اخرج من هذا السجن لذهبت اتفرج على تنفيذ جميع احكام الاعدام ولكنني كنت مخطئا كما اعتقد في التفكير في امكان تحقيق هذه الامنية ، لان فكرة ان أجد نفسي حرا ذات صباح خلف سياج رجال الشرطة ، وفكرة ان اصبح المتفرج الذي يذهب ليشاهد ثم يستطيع بعد ذلك أن يتقيأ ، كانت تملأ قلبي بفرحة طاغية . لقد كانت هذه الفكرة غير معقولة وكنت مخطئا في ترك نفسي نهبا للاوهام والتخيلات ، لاني في اللحظة التالية شعرت ببرودة شديدة الى حد اني انكمشت تحت غطائي واخذت اسناني تصطك ببعضها بعضا دون ان استطيع وقفها ..

ولكن الانسان لا يستطيع دائما بطبيعة الحال أن يكون معقولا ، ومن أمثلة ذلك اني فكرت عدة مرات في اصدار مشروعات قوانين وفي اصلاح نظام العقوبات ولاحظت ان اهم شيء هو منح فرصة لمن يحكم عليهم بالاعدام ولو بنسبة واحد الى الالف ، فان هذا يكفي لتنظيم الامور ، وعلى هذا بدا لي انه من الممكن ابتكار تركيب كيميائي يقتل المريض (واكرر : المريض) الذي يتناوله في كل تسع حالات من عشر . ويشترط ان يكون على بينة بمفعول هذا التركيب ذلك اني حينما فكرت في هذا الموضوع بهدوء وجدت انه لا توجد بالنسبة للموت على حد المقصلة اية فرصة للنجاة على الاطلاق وهذا نقص معيب فمصير المريض ازاءها يتقرر بصفة نهائية ويصبح شيئا مفروغا منه ، واتفاقا لا يمكن

الرجوع فيه ، ولو حدث ان خابت ضربة المقصلة لسبب شاذ فانها يمكن أن تعاد مرة أخرى ، وعلى هذا فان المحكوم عليه لا يكون أمامه الا أن يتمنى ان تسير الآلة سيرا طبيعيا ، وهذا يعني انه يجد نفسه مضطرا لان يتعاون معها ادبيا •• فان من مصلحته ان يسير كل شيء من غير حدوث اي عائق •

وقد تحققت ايضا على الرغم مني أن كثيرا من افكاري عن هـذه المسائل لم تكن مضبوطة ، فقد كنت اعتقد لفترة طويلة من الزمن — ولا اعرف لماذا — انه لكي يتجه الانسان الى الجيلوتين فانه يجب عليـه ان يصعد منصة ، وان يتسلق عددا من الدرجات ، واظن ان هذا كان بسبب ثورة عام ١٧٨٩ ، اقصد بسبب ما تعلمته او رأيته بصدد هذه المسائـل ، ولكني تذكرت ذات صباح صورة كانت قد نشرتها احدى الصحف بمناسبة تنفيذ حكم بالاعدام كان له دوي شديد ، فالواقـع ان الآلة كانت قـد وضعت بكل بساطة على الارض ذاتها (دون منصة او درجات) وكانت اقل اتساعا مما كنت اظن ، وقد تأثرت جدا بصورة هـذه الآلة بسبب منظرها اللامع ودقة صنعها • ان الانسان تكون له دائما افكار مبالـغ فيها عن الاشياء التي يعرفها ، وعلى هذا فينبغي ان اعترف بأن الامر كان في غاية البساطة فالواقع ان الآلة كانت في مستوى الرجل الـذي يسير نحوها وهو يتجه اليها كما لو كان يسير لمقابلة شخص ، ولكن مثل هذه المقصلة لا تخلو ايضا مما يثير الضيق ، فان الصعود على المنصة في اتجاه السماء وارتقاء الدرج شيء يثير الخيال وهو أمر لا يتوافر في المقصلـة السالفة الذكر •

وهناك شيئان آخران كنت افكر فيهما طول الوقت : الفجر وعريضة الاستئناف • وقد راجعت نفسي مع ذلك وحاولت الا أمضي في التفكير ،

فتمددت واخذت اتطلع الى السماء وحاولت أن انشغل بها .. لقد اصبحت خضراء ، فقد حل المساء ، وبذلت جهدا لكي احول مجرى افكاري واصغيت الى قلبي ولم استطع ان اتصور ان هذا الضجيج ، الذي رافقني طوال هذا الزمن ، يمكن ان يتوقف ، انني لم أكن املك حقاً موهبة الخيال ، ولكني حاولت مع ذلك ان انمثل لحظة يتوقف فيها هذا القلب عن ايصال النبض الى رأسي ، ولكن محاولتي ذهبت عبثا ، فقد كان الفجر والاستئناف يستحوذان على كل تفكيري ، واخيرا قلت لنفسي ان الشيء المعقول حقا هو الا ارغم نفسي على شيء .

وفي الفجر جاءوا ، وكنت اعرف ذلك من قبل ، ولقد شغلت ليالي بانتظار هذا الفجر ، انني لم أكن أحب أن أفاجأ على الاطلاق ، فحينما يحدث لي اي شيء افضل ان اكون مستعدا له ، ولهذا فقد انتهى الامر بأن أصبحت لا أنام الا قليلا في النهار ، وأن أنتظر بصبر على طول الليل مولد الفجر على صفحة السماء ، وكان اصعب شيء هو انتظار هذه الساعة المريبة التي كنت اعرف انهم سيقومون فيها بعمليتهم المعهودة ، وحينما كان الليل ينتصف كنت انتظر وارتقب وكلي آذان مرهفة ، واستطيع القول مع ذلك اني كنت حسن الحظ في خلال كل تلك الفترة لاني لم اسمع أية خطوة تقترب من زنزانتي . أن أمي كانت تقول في كثير من الاحيان ان الانسان لا يكون مطلقا تعيسا مائة في المائة ، وقد تحققت من ذلك في سجني حينما كانت السماء تتلون وحينما كان يبزغ نهار جديد في زنزانتي ومع ان اقل حركة كانت تجعلني اندفع نحو الباب ومع اني كنت انصت الى اي صوت واذني ملتصقة بالخشب واستحوذ على الهلع الى حد انني كنت اسمع صوت تنفسي ، فلم يكن في كل ذلك ما ينم عن التعاسة المطلقة لاني في آخر المطاف كنت اجد نفسي حيا ارزق ، واني كسبت اربعا وعشرين ساعة جديدة .

وكانت مسألة الاستئناف تشغلني ايضا طوال اليوم ، وعلى اي حال فقد استفدت كثيرا من التفكير في هـذا الموضوع ، وخلصت منـه بأن افترضت أسوأ الفروض وهو ان الاستئناف سيرفض .. حسنا ... اذن سأموت وسأموت مبكرا .. قبل غيري . ولكن الناس كلهم يعرفون ان الحياة لا تستحق عناء العيش فيها والواقع لم أكن اجهل ان الموت في سن الثلاثين أو في سن السبعين لا يهم كثيرا ، اذ في كلتا الحالتين سيعيش بطبيعة الحال رجال آخرون ونساء اخريات ، وسيستمر الحال على هـذا المنوال آلاف السنين ، ولم يكن هناك شيء أكثر من ذلك وضوحا بـأي حال ، والشيء المؤكد هو انني انا الذي سأموت ، سواء الآن او بعـد عشرين سنة ، ولكن الشيء الذي ضايقني قليلا ، وانا افكر ، هو هـذه القفزة المخيفة التي الى الامام .. مدى عشرين عاما ، ولكني طردت هذه الفكره من ذهني وروضت نفسي على قبول فكرة ان الاستئناف سيرفض.

ولكن في هذه اللحظة ، وفي هذه اللحظة فقط ، كان لي الحق ، أو بعبارة اخرى اعطيت لنفسي الحق ، في ان ابحث الفرض الثاني ، وهو اني سأحصل على العفو ، وقد ازعجني ، حينما ساورني هذا الخاطر ، انـي أحسست بدمي وجسمي ينتفضان ويوخز فيعيني من فرط الفرحة المخبولة التي غمرتني ، ووجدت انه ينبغي ان اكبح جماح هذا الخاطر وان اوجهه وجهة تتفق مع المنطق والعقل، اذ يجب ان اكون طبيعيا حتى في هذا الفرض لكي احقق التوازن بينه وبـين الفرض الاول الذي اذعنت فيـه لقدري واستسلمت لمصيري ، ولما نجحت في ذلك امضيت ساعة غمرني في خلالها الهدوء وكان هذا كسبا في حد ذاته ..

ولقد رفضت مرة اخرى في لحظة مماثلة ، ان استقبل الكاهن . كنت مستلقيا حينئذ واحدس باقتراب حلول امسية الصيف وتلون السماء بلون

الذهب ، وكنت قد اعددت نفسي لتقبل نبأ رفض الاستئناف واستطعت ان احس بأمواج دمي تتدفق بانتظام في جسدي ، ولم اكن في حاجة الى الكاهن ، ولاول مرة منذ فترة طويلة من الزمن فكرت في ماري انها لم تكتب لي منذ زمن طويل ، وفي هذا المساء قلت لنفسي انها ربما سئمت ان تظل عشيقة لمحكوم عليه بالموت ، كما خطرت لي ايضا فكرة انها ربما تكون مريضة او ماتت . كان هذا هو منطق الاشياء ، وكيف اعرف الحقيقة اذا كان لم يعد يربط بيننا شيء او يذكر احدنا الآخر ؟، وعلى اي حال ومنذ هذه اللحظه اصبحت لا ابالي بذكرى ماري فاذا كانت قد ماتت فان هذا لم يعد يهمني كثيرا ، ووجدت هذا أمرا عاديا بالطريقة نفسها ، التي أدركت بها ان الناس سينسونني بعد موتي اذ لن يكون ثمة ما يدعوهم الى ان يذكروني ولا استطيع ان اقول ان التفكير في ذلك شيء مؤلم .

وفي هذه اللحظة بالذات دخل الكاهن عندي ، ولما رأيته اصابتني رعده ارتجف معها بدني بعض الشيء ، ولمح ذلك وطلب مني الا اخاف فقلت له انه يحضر عادة في مناسبة معينة ، فاجاب بان هذه زيارة ودية لا علاقة لها بالاستئناف الذي قدمته والذي لا يعرف عنه شيئا ، وجلس على فراشي ودعاني للجلوس الى جانبه ، ولكني رفضت ، ومع ذلك فقد بدا لي انه وديع جدا .

وظل جالسا بعض الوقت وقد وضع ساعديه على ركبتيه وخفض رأسه واخذ ينظر الى يديه وكانت يداه رفيعتين تكسوهما العضلات ، وخيل الي انهما تشبهان وحشين سريعي الحركة .. واخذ يفركهما ببطء وظل على هذا الحال فترة طويلة من الوقت وهو خافض الرأس حتى خيل الي في احدى اللحظات اني نسيته .

ولكنه رفع رأسه فجأة ونظر في وجهي وقال : لماذا ترفض ان ازورك؟ فقلت لاني لا اؤمن بالله ، واراد ان يعرف اذا كنت اعني ما اقول ، فقلت له اني لم أسأل نفسي في ذلك لان هذه المسألة لا تبدو لي ذات اهمية ، وحينئذ مال الى الخلف واستند الى الحائط وبسط يديه على فخذيــه ، ثم قال من غير ان يبدو عليه انه يكلمني ، اني أظن نفسي واثقا احيانا مــا اقول مع ان الحقيقة غير ذلك ، ثم نظر الي وسألني :

ما قولك في هذا ؟ فقلت له ان هذا جائز ، واردفت قائلا : انني على اي حال ربما لا اكون واثقا من الاشياء التي تهمني فعلا ، ولكني واثــق من الاشياء التي لا تهمني ، والواقع ان ما كان يحدثني فيه لم يكن يهمني.

ومن غير ان يحول بصره او ان يغير جلسته سألني عما اذا كنت اقول هذا بسبب شدة يأسي ، فقلت له اني لا أشعر باليأس واني أشعر فقط بالخوف ، وهذا شيء طبيعي . فقال :

« ان الله سيساعدك اذن ، وجميع الذين عرفتهم وكانت لهم مثــل حالتك اتجهوا نحوه » . فقلت له ان هذا من حقهم وربما كانت لديهــم فسحة من الوقت لكي يفعلوا ذلك اما بالنسبة لي فاني لا اريد ان يساعدني احد ، وانه يعوزني الوقت الكافي لكي اهتم بما لا اهتم به .

وفي هذه اللحظة بدرت من يديه حركة تنم عن الاستياء ولكنه نهض واصلح ثنيات ثوبه ، ولما انتهى من ذلك خاطبني قائلا . يا صديقي ! وقال انه لا يحدثني هكذا لاني محكوم علي بالموت ، واردف قائلا : اننا جميعا محكوم علينا بالموت ، ولكنني قاطعته قائلا : ان التشبيه مختلف ، وان الحالة ليست واحدة ، وان هذا الكلام لا يمكن ان يدخل في قلبي العزاء ، فوافقني على وجهة نظري وقال :

بالتأكيد ... ولكنك ستموت فيما بعد اذا لم تمت اليوم والمسكلة نفسها ستظهر حينئذ ، فكيف ستواجهها اذن ؟ فقلت له اني سأواجههـا بالطريقة نفسها التي اواجهها بها الآن .

ونهض حينئذ ونظر في عيني مباشرة وهذه لعبة أعرفها جيدا ، وكنت اتسلى بها كثيرا مع عمانويل او سيلست وكانا في معظم الاحوال يحولان عيونهما عني ، والكاهن ايضا يعرف هذه اللعبة ، وقد فهمت ذلك في النو واللحظة فقد كانت نظرته ثابتة وعيناه لا تطرفان كما ان صوته لم يرتعش حينما قال لي :

أليس عندك اذن أي أمل ؟ وهل تعيش بفكرة انك ستموت حتما ؟» فقلت : نعم ..

وحينئذ خفض رأسه وجلس من جديد ، وقال انه يرثي لحالي ، وان حالتي لا يمكن ان يطيقها انسان . اما انا فقد بدأت فقط احس بـأني متضايق وتحولت عنه بدوري واتجهت الى كوة الزنزانة واستندت بكتفي الى الجدار ، ومن غير ان اتتبعه سمعته يبدأ في استجوابي من جديد ، وكان يتكلم بصوت يشوبه القلق والتعجل فأدركت انه منفعل وعواطفه مهتاجة فأخذت اصغي اليه بطريقة افضل .

وقال انه على يقين من ان استئنافي سيقبل ولكني احمل ثقل خطيئة ينبغي التخلص منها .. وقال ان عدالة الناس لا اهمية لها ، وان عدالة الله هي كل شيء ، فقلت له ان العدالة الاولى هي التي ادانتني ، فأجاب بأنها كذلك لم تغسل خطيئتي ، فقلت له اني لا اعرف ما هي الخطيئة ، فقال لي فقط اني مذنب ، فقلت له اني كنت مذنبا وقد دفعت الثمن ولا يمكن ان يطلب مني شيء أكثر من ذلك . وفي هذه اللحظة وقف مرة اخرى وفكرت

حينئذ انه اذا اراد ان يتحرك في مثل هذه الحجرة الضيقة فلن يكون امامه خيار فهو اما ان يجلس او يقف .

وكان بصري متجها الى الارض ، وتقدم خطوة مني ثم توقف كما او كان قد اعوزته الجرأة لكي يتقدم ، وأخذ يتطلع الى السماء من خلال قضبان الكوة ثم قال انك على خطأ يا بني ، فمن الممكن ان يطلب منك المزيد وربما يطلب منك ذلك فعلا ، ومن الممكن ان يطلب منك ان ترى .. ترى ماذا ؟..

ونظر القس حوله ثم اجاب على سؤاله بصوت احسست انه متعب فقال : ان كل هذه الاحجار تنضح بالالم وأنا موقن بهذا .. انني لم أنظر اليها قط دون ان يساورني الحزن ولكني اعتقد في صميم قلبي ان اشد الناس تعاسة بينكم قد رأوا وجها سماويا يخرج من بين ظلام هذه الاحجار . والمطلوب منك هو ان ترى هذا الوجه .

وتأثرت بعض الشيء وقلت اني منذ شهور وانا اتطلع الى هذه الجدران ، وانه لا يوجد في الدنيا شيء او شخص اعرفه اكثر منها وربما بحثت فيها منذ زمن بعيد عن وجه ما ، ولكن هذا الوجه له لون الشمس وبه لهيب الرغبة لقد كان وجه ماري وقد بحثت عنه من غير جدوى ، ولكن كل شيء قد انتهى الآن .. وعلى اي حال فاني لم ار شيئا ينبثق من رشح هذه الاحجار .

ونظر اليّ الكاهن بنوع من الحزن وكنت حينئذ مستندا بظهري الى الجدار ، وكان الضوء يسيل الى جبهتي وقال بعض كلمات لم اسمعها ثم طلب مني بسرعة اذا كنت اسمح له بأن يقبلني فقلت له « لا » واستدار وسار نحو الحائط ومرر عليه يده ببطء وتمتم قائلا : هل تحب اذن الارض عند هذه النقطة ؟ ولكني لم اجب .

وظل فترة طويلة مطرقــا برأسه وكان وجوده قد بــدأ يثقل علي ويضايقني ، وكنت على وشك ان اطلب منه الرحيل ، وان يتركني حينمــا صاح فجأه بصوت مرتفع وهو يلتفت نحوي : كلا ... انا لا استطيع ان اصدقك ، انني على يقين من انك كنت تتمنى حياة اخرى . فأجبت قائلا : ان هذا شيء طبيعي ، ولكن هذا لم يعد له اهمية اكثر مما لو كنت قــد تمنيت ان اصبح غنيا .. او ان اسبح بسرعة افضل ، او ان يكون لي فــم احسن شكلا ، فهذا هو الشيء نفسه ، ولكنه قاطعني واراد ان يعرف كيف ارى هذه الحياة الاخرى فقلت له : انها حياة استطيع ان أتذكر فيها هذه الحياة ، ثم لم ألبث ان قلت له ان في هذا الكفاية ، فاراد ان يتكلم معــي مرة اخرى عن الله ولكني تقدمت نحوه وحاولت ان افهمه انه لــم يعد امامي سوى وقت قليل لا اريد ان اضيعه مع الله ... واراد ان يحــول موضوع الحديث فقال لي : لماذا اخاطبه بكلمة « يا سيدي » بدلا من ان أقول له يا أبي فاهاجت هذه الملاحظة أعصابي وقلت له انه ليس أبي وانه يقف مع الناس الآخرين ضدي .

ولكنه قال وهو يضع يده على كتفي : كلا يا ولدي انني معــك ، ولكنك لا تستطيع ان تعرف ذلك لان لك قلبا اعمى ، انني أصلي مــن أجلك .

وحينئذ شعرت كأن شيئا ينفجر داخــل نفسي ولا اعرف لمــاذا ، فبدأت اصرخ بأعلى صوتي وشتمته وقلت له الا يصلي من اجلي وامسكت به من ياقة ثوبه الكهنوتي وصببت عليه كل ما يعتمل في قلبي ، وأنا أنتفض انتفاضات امتزج فيها الفرح بالغضب وكان يبدو عليه انه واثق من نفسه ، أليس كذلك ؟ ومع هذا فان هذه الثقة لا تعادل شعرة واحدة من امرأة . انه لم يكن حتى متأكدا من انه حي لانه يعيش كالميت اما انــا فكان يبدو ان يدي فارغتان ولكني كنت متأكدا من نفسي متأكدا مــن

كل شيء أكثر منه ، متأكدا من حياتي ومن هذا الموت الذي سيأتي ، نعم لم يكن عندي سوى ذلك ولكني على الاقل كنت أتشبث بهذه الحقيقة كما تشبثت هي بي ، لقد كان معي حق وكنت ايضا على حق ، وكنت دائما على حق ، لقد عشت حياتي بطريقة ما وكان يمكن ان اعيشها بطريقة اخرى ، لقد فعلت هذا ولم افعل ذلك ولم اعمل شيئا معينا في حين عملت شيئا آخر . وبعد ؟ لقد خيل الي انني كنت انتظر طوال حياتي هذه الدقيقة وهذا الفجر لكي ابرر اعمالي وابرىء نفسي . لا شيء يهم مطلقا وانا اعرف لماذا . وهو ايضا يعرف لماذا ، ومن اعماق مستقبلي وخلال كل الحياة التي لا معنى لها التي عشتها كانت تصعد نحوي نسمات غامضة عبر سنين لم تأت بعد ، وكانت هذه النسمات تجعل كل شيء يبدو متساويا في نظري خلال السنين التي عشتها والتي لم تكن اكثر واقعية من السنين السالفة الذكر ، وماذا يهمني من موت الآخرين ومن حب الام وماذا تهم الحياة التي يختارها الانسان والمصير الذي يريده اذا كان هناك قدر واحد يختارني أنا نفسي ومعي ملايين الملايين من الناس الذين غمرهم هذا القدر بالميزات والذين يزعمون مع ذلك انهم اخوتي كما فعل هذا القسيس فهل يفهم ؟... هل يفهم ذلك اذن ؟ ان الناس كلهم ينعمون بالميزات ولا يوجد هناك سوى أشخاص ينعمون بالمزايا والآخرون أيضا سيأتي يوم يدانون فيه وهو ايضا ـ القسيس ـ سيأتي يوم يدان فيه وماذا يهم ، اذا اتهم انسان بالقتل أن يعدم لانه لم يذرف الدمع في جنازة أمه ؟ ان سالامانو كان يعتز بالكلب اكثر مما كان يعتز بزوجته والمرأة الصغيرة التي تشبه الدمية المتحركة كانت أيضا مذنبة مثل زوجة ماسون الباريسية مثل ماري التي كنت ارغب في ان اتزوجها ، وماذا يهم في ان ريمون كان صديقا لي مثل سيلست الذي كان أفضل منه ؟ وماذا يهم اذا اعطت ماري شفتيها اليوم لميرسول جديد ؟ فهل يفهم اذن .. هذا المحكوم عليه ... انني من اعماق مستقبلي آكاد

أختنق وأنا أصرخ بكل هذا ، ولكن الحراس انتزعوا الكاهن من بين يدي وهددوني ، ولكنه مع ذلك هدأ من روعهم ونظر اليّ لحظة وهو صامت وكانت عيناه ممتلئتان بالدموع ثم استدار ومضى ...

وبعد أن رحل شعرت بالسكينة . كنت أشعر بأني مجهد فألقيت بنفسي على فراشي ، واعتقد اني نمت لاني استيقظت والنجوم فوق وجهي وتصاعدت ضوضاء الريف نحوي وانعشتني روائح الليل والارض والملح، ونفذ الى داخل نفسي هذا السلام العجيب اللطيف للصيف النائم كأنه مد البحر ، وفي هذه اللحظة ارتفع صوت صفارات السفن بالرحيل الى عالم لن يبالي بي بعد الى الابد ، ولاول مرة منذ وقت طويل فكرت في أمي ، وبدا لي اني فهمت لماذا اتخذت لها في أخريات حياتها « خطيبا » كما لو كانت تريد أن تبدأ الحياة من جديد ، فهناك أيضا ... هناك أيضا ... حول هذا الملجأ حيث تنطفىء الحيوات كأن المساء يثير الكآبة في النفس ، وكانت امي حينما اصبحت قريبة من الموت تريد ان تحس بأنها حرة وانها مستعدة لان تعيش مرة اخرى ، ولم يكن من حق احد قط ان يبكي عليها وانا ايضا احس بأني مستعد لان احيا من جديد واشعر كما لو كانت هذه الغضبة الكبيرة التي غمرتني قد طهرتني من الشر وحررتني من الامل امام هذا الليل المشحون بالعلامات والنجوم ، وقد تفتحت نفسي لاول مرة لما في العالم من عدم مبالاة يتسم بالحنان ، وعدم المبالاة هذا الذي يظهره العالم نحوي والذي ينطوي ارضا على معنى الاخوة جعلني ايضا احس اني كنت سعيدا وان هذه السعادة لم تفارقني ، ولكي ينتهي كل شيء على ما يرام ولكي لا أشعر بكثير من الوحدة لم يعد أمامي الا أن أتمنى أن يحضر متفرجون كثيرون ، يوم تنفيذ الحكم باعدامي ، وان يستقبلوني بصيحات الكراهية .

تــم الكتــاب